

قطاع الثقافة

مجموعة الأعمال الكاملة

عيون ممطرة

عبد الوهاب مطاوع

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

دار أخبــــار اليـوم
قطـــاع الثقـــافـة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة

عيون ممطرة!

عبد الوهاب مطاوع

هـــذا الكتـــاب

أعجبنى هـذا التعبير « عـيون ممطرة » فاختـرته عنواناً لكتابى هذا الذى يضم مجمـوعة جديدة من قصص المعذبين والمهـمومين بأمورهم الحقيقية .

ولست أذكر أين قـرأت هذا التعبـير .. أو أين سمعـته ، ولا هل قرأته أو سمـعته من قبل بالفعل ، أم أنه قد طاف بخـاطرى فجأة وأنا أعدّ هذه المجـموعة من القـصص الإنسـانيـة الواقعيـة للنشر ، فرأيته معبراً عنها وملائماً لها .

إن مطر العـيـون هو دمـوعـهـا .. وهو « مطر » رحـيم يرطِّب الأحـزان الجافـة ويخـفف من قـسوة الآلام ، كـمـا ترطب أمطار السمـاء حرارة الجو وتخفف من هـجير الحيـاة ، والقادرون على استمطار عـيونهم عند اشتداد الحزن والضـيق والألم أحسن حالاً ممن تستعـصى عليهم عيونـهم حين يحتاجون إلـى إطلاق البخار المكتوم فى صدورهم .

ولقد تنبه الشـاعر العربى القديم ابن الرومى إلى هذه الحقـيقة النفسية الحديثة نسبياً ، فقال :

لم يُخلقُ الدمع لامرىء عبثاً

الله أدرى بلـوعــة الحــزَنِ

فـعـسى أن أكــون قـد اسـتـطعت تجـفـيف بـعض دمـع المحـزونين الـذين أفـضوا إلىّ بهـمومهم وطـلبوا مشــورتى فى أمـرهم .. وعـسـاى - أن تعـذر علىّ تجـفـيـف الدمع فى بعض الأحـيان - أن أكـون قد نـجحت على الأقل فى تأكـيـد احتـرامى لأحزان مَنْ استودعونى أسرارهم الشخصية .. ودموعهم !

والله من وراء القصد دوماً وأبداً .

عبد الوهاب مطاوع

تحطيم الأغلال

ترددت أكثر من مرة فى الكتابة إليك ، لأننى لست شاباً صغير السن يبحث عن حل لمشكلته ، وإنما أنا للأسف رجل فى قمة النضج وفى الثالثة والخمسين من عمرى .. وقد تزوجت منذ ٢٥ عاماً ، وأنجبت من زوجتى ٥ أبناء أكبرهم فى الثالثة والعشرين وأصغرهم عمره عامان ، وكنت أتمنى ألا أكون قد أنجبت من زوجتى هذه لأن أبنائى هم السبب الرئيسى فيما عانيته وتحملته منها ..

ولكى أرسم لك صورة صادقة عن زوجتى ، فإنى أقول لك إن طبعها يختلف عن طباع كل الزوجات ، وإنها لا تأخذ أى كلمة تقال لها بحسن نية أبداً ، وإنما بحساسية شديدة دائماً ، وتتفنن فى اختلاق المشكلات بغير أسباب حقيقية ، ومن الأيام الأولى لزواجنا، وقبل أن ينتهى شهر العسل كنا نتناول طعام الإفطار فى أمان، فنهضت زوجتى عن المائدة فجأة ، وبعد قليل شممت رائحة كيروسين قادمة من ناحية الحمام ، فاتجهت إليه لاستطلاع مصدرها، فإذا بى أرى زوجتى هذه وقد سكبت الكيروسين على جسمها وملابسها وتبحث عن علبة الكبريت ! وكانت أزمة كبرى تدخل فيها الأهل والوسطاء ، ومنذ ذلك اليوم خيم النكد على

حياتنا حتى أصبحت أغادر البيت والنكد يصاحبنى ، وأرجع إليه لأجده فى انتظارى .

وجاء الأبناء واحداً بعد الآخر .. واستقرت طبيعة الحياة بيننا على ما سارت عليه من البداية للأسف . ونجحت زوجتى فى إعدام شخصيتى وإهدار كرامتى كأب أمام أبنائه .. فذات يوم دفعتنى بقوة ، فسقطت على الأرض ، وتركتنى أتوجع من شدة الألم أمام الأولاد .

كما طلبت منى « نزع يدى » من عملية تربية الأبناء منذ جاء أول مولود ، وفرضت هى سيطرتها على كل أفراد الأسرة ، وأصبحت صاحبة الأمر والنهى فى البيت والأسرة وشئون الأبناء وكل شىء .

إلى جانب مطالبها التى لا تنتهى ولا تتناسب مع دخلى الشهرى ، فإذا رفضت لها طلباً علا صوتها ليسمعه الجيران والمارة .

وإذا وجدت هى أحد إخوتها قد اشترى لنفسه أو لنفسها شيئاً فلابد لها من أن تشتريه وترهقنى بثمنه ولو لم نكن فى حاجة إليه ، لأنها مصابة بداء الغيرة الشديدة من الآخرين ، كما أنها مغرمة بأن تعيِّرنى دائماً بالآخرين ، وتحدثنى عما اشترى فلان ، وعما جاء به فلان ، ومنهم التاجر الذى لا يقاس دخلى بدخله ، ورئيس مجلس الإدارة الذى يتقاضى أضعاف مرتبى كموظف عادى .

ولا أريد أن أطيل عليك بالتفاصيل المخجلة عن نمط حياتى معها وعلاقتها بى ، ولكن يكفى أن أقول لك فقط إنها حين تريد إيقاظى من النوم ، فإنها لا تهزنى برفق فى كتفى كما تفعل الزوجة التى

تعرف ربها .. ولا تقول لى : اصح يا حبيبى كما تفعل الزوجة المحبة .. وإنما تركلنى بقدمها وتصيح فىّ : قوم .. إياك ما توعى تقوم !

وإذا جاءنا ضيوف ، فإنها لا تدع لى الفرصة للجلوس معهم .. وإذا فعلت ، ولو بطريق الخطأ ، فإن الشجار والنكد سوف ينتظراننى بعد انصرافهم ، كما أنها لا تسمح لى بالذهاب إلى عملى إلا بعد استئذانها ، وإذا تصادف أن تأخرت فى العودة لأى سبب طارئ فتحت لى محضراً ، وهات يا سين وجيم ، ويزداد النكد أضعافاً مضاعفة ، فضلاً عن أنها كثيراً ما تستفزنى بأقوال من نوع : لو كنت رجلاً اخرج ولا تعد مرة أخرى ، أو لو كنت رجلاً تزوج ! وهل تظن نفسك رجلاً ؟ إلخ .. حتى أننى أقوم بغسل الأطباق والحلل وتنظيف الشقة ، وغير ذلك كثير وكثير ، وقد اختتمته زوجتى أخيراً بهجرها لفراش الزوجية ، مع أنى قد تحملت ٢٥ عاماً لم أشعر خلالها بالراحة النفسية وراحة البال ، وصبرت على النكد وإهدار كرامتى وشخصيتى أمام الأبناء والأقارب والغرباء .

ولقد كان من نتائج إبعاد زوجتى لى عن شئون أبنائى أن سار الابن الأكبر فى طريق خاله .. وهو طريق معوج ، ووقع فى مشكلة قضائية كان السبب الرئيسى فيها شقيق زوجتى .. ولا غرابة فى ذلك ، فقد كنت أرى الخطأ بعينى وأسمع عنه من الآخرين ولا أستطيع أن أفعل شيئاً ، كما بدأ الابنان الثانى والثالث يسيران فى الطريق نفسه وأنا عاجز عن فعل شىء لأن أمهم قد منعتنى من تربية أبنائى وهم صغار .

إننى أعرف أنك « ربما » تلومنى أنا فى البداية لأننى قد

أعطيتـها الفرصة لكل مـا فعلته طوال ٢٥ عـاماً من الزواج .. لكن الأوان قد حان الآن لأن أتحـرر مما أنا فيه وأشعر بـنفسى كرجل مثل غـيره من الرجال له شـخصيـته القوية وكرامـته ، وحقـوقه المشـروعة كـزوج ، فلقد ضـاق صدرى وفـرغ صبـرى على هذه الزوجة الـتى كثيـراً ما فكرت فى التـخلص منها لولا خـوفى على أطفالى الصغـار منها ، وأقسم لك فى النهاية أن كل كلمـة ذكرتها لك عنها صحيحة ولا مبالغة فيها .. فماذا أفعل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليتك لم تشم رائحة الكيروسـين قبل أن تعثر زوجتك على علبـة الكبـريت فى ذلك اليوم المشئـوم من شـهر « عـسلك » معها !

وأغلب الظن أنه لو كان قد حدث ذلك لما انتحرت أيضاً ، ولا أعفت الحـياة من وجـودها فيهـا ، وإنما كانت قـد فقـدت فقط فاعلـية إحدى وسـائلها المبكرة للسـيطرة عليك وقـهر إرادتك وإرغامك على قبول ما لا تحب لنفـسك على نحو ما فعلت معك على مدى ٢٥ عاماً !

ولا عجب فى ذلك لأن مَنْ تُقـدم على الانتحار حرقـاً لا تبدأ بسكب الكيروسين على جسمها ثم تبدأ بعد ذلك فى البحث عن الكبريت ، لكى تصل رائحة الكيروسـين الفواحة إلى مَنْ يهمه الأمـر ، فـيهب لإنقـاذها ، وتحـقق هى الهـدف من المحـاولة ، ويتكرس الخوف فى نفسه من مخالفة رغـباتها فيما بعد لكيلا تكرر واقـعـة الانتـحـار وتكون كـارثـة جـديدة .. ناهيك عن اسـتخـدامـهـا فيـمـا بعد ، للأسـاليب الأخـرى فى التـرهيب والترغيب لقهر إرادة الزوج وإذلاله !

فما هذا الذى ترويه عن نفسك وزوجتك وأبنائك يا رجل ، وبأى أعذار سوغت لنفسك الصبر على كل هذا الهوان .. حتى اختتمته زوجتك بهجرها لفراش الزوجية .. فإذا بالصبر قد نفد ، والصدر قد ضاق بما فيه ، وشعرت بأنه قد آن الأوان لأن تحطم قيودك وتتحرر مما أنت فيه !

أغلب ظنى أن هجرها المتأخر لفراش الزوجية كان الشرارة التى أشعلت النار فيما بقى من صبرك عليها وقضى عليه ، أما حكاية الحرص على مصلحة الأبناء كمبرر للصبر وقبول الإهانة وإهدار الكرامة على هذا النحو المؤسف ، فإنها لا تبدو لى فى قصتك مبرراً مقنعاً .. ذلك أن الكتاب يُقرأ من عنوانه ، ولقد اتيحت لك الفرص العديدة لقراءته فى شهر العسل والشهور الأولى من الزواج ، وخلال ما يقرب من العامين اللذين سبقا إنجابك لأول أطفالك ، ولم تنتهز الفرصة وتنج بكرامتك وحياتك من هذا الشقاء .. كما كان بمقدورك أيضاً ، وقد خبرت شخصية زوجتك ، أن تقلل من روابطك بها حتى بعد إنجاب الطفل الأول أو الثانى .. أما أن تواصل الإنجاب منها حتى ليقل عمر أصغر الأبناء عن عامين ، فلا معنى له إلا أنك لم تصبر على ما لقيته منها من أجل هؤلاء الأبناء .. وإنما لأسباب أخرى .

وعلى أية حال ، فإنى لست فى حاجة إلى تأكيد موقفى وإيمانى الثابت بأن من واجب الآباء والأمهات أن يصبروا على شركاء الحياة حرصاً على سعادة الأبناء واستقرارهم ، لكن الإمام الشافعى - رضى الله عنه - يقول لنا على الناحية الأخرى إنه « ما من عام إلا وخصص ، حتى هذه القاعدة

نفسها !» وهو المعنى نفسه الذى ردده المحدثون فيما بعد ، حين قالوا إن لكل قاعدة استثناء .. أنت يا سيدى هذا الاستثناء من القاعدة التى أؤمن بها ، ويدعونى ذلك لأن أقول لك : إن الزوجة التى تمتهن كرامة زوجها وتتلذذ بفرض سيطرتها عليه وإذلاله وإهانته أمام أبنائه والأقارب والغرباء، ولا توقظه من نومه إلا ركلاً بالأقدام ، وتحرِّم عليه مجالسة ضيوفها كأنه عار شخصى لا يصح إطلاعهم عليه ، وتكف يده عن شئون أبنائه لكى تنفرد دونه بتنشئتهم على قيمها الفاسدة ، حتى ليقع أحدهم فى مشكلة قضائية بسبب سيره مع خاله فى الطريق المعوج .. مثل هذه الزوجة لا رادع لها ولا علاج سوى الانفصال عنها ولو كان زوجها قد أنجب منها عشرين طفلاً ، ولا عذر لمَنْ يتحمل الهوان معها بدعوى مصلحة الأبناء ، لأن مصلحة الأبناء مسئولية مشتركة بين الأبوين ، وليست مسئولية أحدهما دون الآخر ، ولا يجوز لأحدهما أن يتمادى فى الضغط على الآخر على هذا النحو المذل اعتماداً على استشعاره لواجبه الأخلاقى تجاه أبنائه ، وإلا تحول الأبناء إلى سيف بتار فى يد أقل الطرفين حرصاً على مصلحتهم ورعاية لحقهم عليه .

كما أنه ليس من مصلحة مثل هؤلاء الأبناء فى النهاية أن ينشأوا فى كنف أب مقهور الإرادة ومهدر الكرامة مع أمهم ، فتهتز قيمهم الأخلاقية ومثلهم العليا ، ويخرجوا إلى الحياة بمفاهيم فاسدة ، وحال ابنك الأكبر وأخويه خير دليل على ذلك .. فبأى مبرر إذن يمكن الاستمرار فى تجرع مثل هذا الهوان ؟

لقد فهمت من رسالتك أن زوجتك تعيش فى بيت يقيم به أهلها .. وعلى هذا الأساس، فلن تكون مأساة تربوية عظمى فى أن تتحرر أنت بالفعل من أغلالك معها وتسترد إحساسك بنفسك كرجل .

وإذا كان الأوان قد فات لأن تفعل مع زوجتك ما قام به الشاب قوى الشكيمة بتروشيو فى مسرحية « ترويض الشرسة » لشكسبير حين استفزته شراسة الابنة المدللة كاترين، فتزوجها عامداً لكى يروضها ويهذب جموحها ويرغمها على احترام الزوج ، ونجح فى ذلك بالحيلة والذكاء وقوة الشخصية ، حتى أصبح فى النهاية يشير إلى الرجل العجوز ويقول له محيياً : يوم سعيد أيتها الآنسة الجميلة الرقيقة ! ويطلب من زوجته أن تحييها ، فتسترجع ذكريات زمجرته فى وجهها عند مخالفتها لإرادته وتسرع على الفور بتحية الآنسة وإطراء جمالها !

إذا كان الأوان قد فات على ذلك ، ولا هو المطلوب بالفعل فى العلاقة المثالية بين الزوج والزوجة ، فإن الأوان لا يفوت أبداً لكى يتوقف الإنسان فى أى مرحلة من العمر ويقرر ألا يقبل على كرامته ما لا يرضاه الحر لنفسه مهما تكن الضغوط والإغراءات . فاستجمع إرادتك وحاول محاولتك الأخيرة اليائسة لفرض شخصيتك على زوجتك كزوج كامل الحقوق والأهلية لها ، وكأب للأبناء ورب للأسرة وربان لسفينتها ، فإن لم تستجب لك ، وما أظنها ستفعل ، فأقبل تحديها لرجولتك .. وانفصل عنها .. وتحمل مسئوليتك الأبوية والتربوية عن أبنائك الصغار وهم فى حضانة أمهم إلى أن

يبلغوا سن انتهاء حضانتها لهم ، ثم استقل أنت بتربيتهم وتنشئتهم وتطهير عقولهم وشخصياتهم من المؤثرات الفاسدة التى تسللت إليهم من قبل ، ومَنْ يدرى فلقد تكتشف فى نفسك إذا اقدمت على ذلك بالفعل من القوة ما لم تكن تظنه فيها ، ولقد تكتشف زوجتك فى نفسها حينذاك من الضعف والحاجة الفعلية إليك ما لم تكن هى تبديه أو تعترف به مكراً ودهاءً وإمعاناً فى قهرك والسيطرة عليك . وشكراً !

كشف الحساب

أنا سيدة متزوجة ولدى ثلاثة أطفال ، وقد قرأت رسالة «مواقف الحياة » للأب المعذب الذى يشكو من جحود ابنته الشابة له واجترائها عليه وانحيازها لأمها غير الأمينة على زوجها ولا على أبنائها .. ويصف مدى تألمه لوقاحة ابنته ابنة السبعة عشر عاماً عليه وإنكارها له وطلبها منه أن يغرب عن وجهها ويدعها لنفسها هى وأمها وأريد أن أقص عليه وعلى ابنته قصة أسرتى لعلها تخفف عنه بعض أحزانه .. وتعيد هذه الابنة الضالة إلى رشدها قبل أن تدفع ثمن جحودها لأبيها غالياً من حياتها وسعادتها ، فلقد نشأت بين أب طيب مسالم .. وأم شرسة معتزة ببياض بشرتها وجمالها وسطوة أسرتها ، فى بيت لا يعرف الاستقرار إلا قليلاً ، وتفتحت عيوننا وآذاننا على أمنا القوية الشرسة وهى تشتبك مع أبى فى كل مناسبة وتعيِّره بسمرة بشرته وهوان أسرته بالقياس لسطوة أسرتها المعروفة بالشراسة وتنعى حظها الذى « دفن » جمالها مع هذا الرجل الأسمر «الجلف» كما كانت تدعوه أمامنا ، وهو يتحمل ويصبر ويغضب فى بعض الأحيان ويهجرها لفترة من الوقت ثم يتدخل الوسطاء بينهما فيعود . ويقول لنا بعد عودته إنه لم يرجع إلا من أجلنا لأنه

يخشى علينا من الضياع إذا تركنا لرعاية أمنا وحدها.. إلى أن بدأت أمنا تشركنا فى مصادماتها مع أبينا .. وتأمرنا فى غمرة الشجار بأن نسبّه بأقذع السباب وإلا فالويل لنا إن لم نفعل ذلك، فكنا نمتثل لأوامرها خوفاً من بطشها بنا وتنطق ألسنتنا بأبشع الألفاظ والكلمات ضد أبينا ولا نتوقف ونحن صغار للأسف أمام نظرة الحسرة والألم فى وجهه ونحن نفعل ذلك ، ولا نبادره للأسف بالاعتذار بعد ذلك ، وإنما نشارك أمنا فى خصامه لفترات طويلة ولا نكاد نجيب له طلباً إلا إذا أمرتنا أمنا بذلك وهى تشجعنا على ذلك .. وتشجع شقيقنا الوحيد الذى كان يسرق من نقود أبى من حين لآخر ويعطيها ما يسرقه على أن يستمر فى ذلك وعلى عصيان أبيه ، وتحميه من الحساب .. وتحمينا كذلك من أى عقاب مع أن أبى لم يكن يعاقب أحداً منا .. وإنما كان يكتفى بلومه وبتذكيره بعقاب ربنا لمن يجحد أباه أو يسىء الأدب معه .. ويقول لنا إنه لم يقبل باستمرار الحياة مع أمنا بعد ما لقيه ويلقاه منها إلا لكيلا ينفر منا الخُطَّاب فى المستقبل حين يجدون أمنا فى بيت رجل آخر غير أبيهم وأباهم متزوجاً من امرأة غير أمهم ..، وبالرغم من ذلك ، فلم توقف إساءة شقيقاتى له .. وبلغ أبى قمة الشعور بالألم حين قرأ ذات يوم اسم شقيقتى على كراسة لها، فإذا بها تنسب نفسها بتحريض من أمنا لا إليه كما هو الطبيعى وإنما إلى خالها ذى المنصب المرموق .. فتوقف أمام الاسم المنتحل متألماً وسألها متحسراً : إلى هذا الحد تنكرين أباك وتتمسحين باسم خالك ؟

ثم غادرها دامعاً ومتألماً ..

ومضت الحياة بنا بالرغم من كل شىء وارتبطت إحدى

شقيقاتى بزميل لها بالجامعة لم يرض أبى عنه فى حين خالفته أمى كالعادة وشجعتها على الارتباط به وطالبتها بألا تأبه لموقف أبينا لأنها سوف تزوجها منه رغماً عنه وبالفعل تحدت شقيقتى أباها وأعلنت له أنها سوف تتزوجه رغماً عنه بمساعدة أهل أمى . وتمادت أمى فى تشجيعها على ذلك وحددت لهذا الشاب موعداً لزيارتنا ليطلب يدها من أبى بالرغم من إعلانه رفضه له ، وقبل أن يحل هذا الموعد بأيام قليلة أصيب أبى بالشلل كمداً وحزناً وحسرة على حياته الضائعة بين جفاء زوجته وجحود أبنائه ، وتمت الخطبة وهو مريض حسير ، وبعد فترة معاناة طويلة مع المرض رحل أبى عن الحياة ، ومضينا نحن فى طريقنا، فتزوجت البنات واحدة بعد أخرى .. وانفردت أمى بنفسها وجبروتها فى بيت أبى وعاماً بعد عام راحت تتوالى على الإخوة - الذين جحدوا أباهم وأساءوا إليه فى حياته - المتاعب والمعاناة .. فتعثرت حياة أختى الكبرى التى نسبت نفسها ذات يوم إلى بنوة أمها دون أبيها.. وبعد سنوات من استقرار حياتها الزوجية مع رجل محترم إذا به يُتهم فى جريمة أخلاقية ويتورط فى فضيحة مدوية سوف تدفع أبناءه للخجل من الانتساب لأبيهم كما خجلت أمهم ذات يوم من الانتساب إلى أبيها ناهيك عن جحيم المتاعب القضائية .. وتكاليفها وضيق ذات اليد بعدها .

وتزوجت الأخت الثانية من الشاب الذى تحدت به أبى وأحضرته إلى بيته رغماً عنه وهو مريض ومحسور ، وسافرت معه إلى إحدى الدول العربية ، فذاقت معه كل أنواع الشقاء ولم تهنأ بحياتها الزوجية معه يوماً واحداً ومات فجأة فى سن مبكرة وتركها بلا عائل ولا معاش ، فلم تجد فى النهاية سوى معاش

أبيها وتقدمت بطلب لإعادة صرفه لها كأرملة لا مورد لها .. وهى الآن تعتمد فى معيشتها على معاش الأب الذى تحدته وقهرته وعجلت بمجيء المرض إليه .

أما الابن الوحيد الذى كان يسرق من أبيه ليعطى أمه ويتجرأ عليه فى حمايتها ، فلقد حرمه الله سبحانه وتعالى من الاستقرار فى أى عمل ومن النجاح فى أى مشروع يقيمه ، وما من عمل يبدأه أو مشروع صغير ينفذه إلا ويسرقه فيه مَنْ يعمل معه ويخسر فيه الجلد والسقط ويرجع لنقطة البداية من جديد ، ناهيك عن تعاسته الزوجية التى صارت مضرب الأمثال مع زوجة من أسرة أمى .. ولولا خوفه على أطفاله منها لطلقها واستراح منذ زمن طويل .

ويأتى الدور للحديث عنى وقد شاركت للأسف فى التستر على أمى فى إيذائها لأبى وساعدتها أحياناً فى ذلك فأقول لك إننى سعيدة فى حياتى الزوجية الآن وأطفالى بخير كلهم والحمد لله .. لكنى خائفة حتى المرض مما سوف يحمله لى المستقبل وأشعر بالذنب لما فعلت مع أبى وبالندم الشديد عليه وأترقب عقاب السماء لى عنه وأنا واجفة القلب .. وتمضى علىّ أحياناً بضع ليال لا أذوق فيها طعم الراحة .

وأرى فى نومى كثيراً أبى الراحل يرحمه الله جالساً تحت شجرة جرداء لا أوراق تحميه من لهيب الشمس .. مرتدياً جلباباً متسخاً للغاية وكلما هممت بالاقتراب منه نهض من مجلسه وأدار ظهره لى وابتعد عنى وهو يعرج فى مشيته بطريقة غريبة وانهض من نومى منقبضة الصدر وافسر رموز هذا الحلم بأن الشجرة الجرداء التى كان يحتمى بظلها فلا تظله بأى ظل لأنها بلا أوراق ..

هى نحن أبناء هذا الأب الطيب الصابر الذى لم نظله فى حياتنا بحبنا واحترامنا له وتعاطفنا معه .. وأن هذا الجلباب المتسخ الذى يرتديه رغماً عنه هو أمنا المفترية عليه والجاحدة لفضله .. ولا عجب فى ذلك ، فلقد طردتنا فى النهاية من بيت أبينا وحرمتنا من آخر ميراثه الذى استولى عليه أهلها ذوو السطوة والشراسة .

وكلما نظرت إلى زوجى الذى يحسن معاملتى وأحسن معاملته وإلى أطفالى الصغار الذين يضيئون حياتى بالحب والبهجة والأمل .. استسلم للخواطر السوداء وأتساءل : مَنْ أى اتجاه يا رب سوف يجىء قصاصك العادل منى لجحودى لأبى ومشاركتى لأمى فى إيذائه ؟ وتنهمر دموعى طويلاً وابتهل إلى الله العلى القدير أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، وأن يترفق بى فى قصاصه ، فلا يصيب أحداً من أفراد أسرتى الصغيرة سواى وأرجو أن تشاركنى أنت وقراء بريد الجمعة هذا الابتهال وأن تدعو ابنة كاتبة رسالة « مواقف الحياة الجاحدة » لأبيها إلى أن تقرأ قصتى جيداً وتفيق من غيها وحمقها وترجع إلى أبيها وتطلب صفحه وعفوه قبل أن يحل بها قصاص السماء العادل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا عجب يا سيدتى فيما تروين عن إخوتك ، فلقد علمنا الهادى البشير صلوات الله وسلامه عليه أن كل الذنوب قد يؤخر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه ولو كانت إساءة إخوتك لأبيهم قد اقتصرت على فترة الطفولة الجاهلة أو حتى بواكير الصبا الأرعن لكان الله سبحانه وتعالى قد أعفاهم من المسئولية عنها

باعتبارهم ضحايا لأم لم ترع حدود ربها فى علاقتها بزوجها وأبنائها ، لكنه من الواضح أن هذه « الجهالة » قد تخطت مرحلة الطفولة واستمرت فى مرحلة التمييز بين الخطأ والصواب والحلال والحرام ، أى مرحلة التكاليف الدينية التى تطالب الأبناء برعاية حرمات الأب وطاعته وحسن مصاحبته فلا عجب إذن فى أن يعجل الله سبحانه وتعالى العقاب فى الدنيا لـمَنْ عقوا آباهم وأورثوه الحسرة والمرض .. ولم يقدروا له تضحيته بسعادته الشخصية من أجلهم وخاصة أنه لا يبدو من سياق قصتك أن هؤلاء الأبناء قد استشعروا الندم على ما بدر منهم تجاه أبيهم .. أو استغفروا ربهم آناء الليل وأطراف النهار فيما جنوا على هذا الأب الصابر ، ولا قال قائلهم حين بلغ الرشد وأدرك فداحة جرمه « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » كما سوف يقول يوم القيامة من أنكروا البعث فى ضلالتهم فى الدنيا .

غير أن ما يستحق أن يتوقف المرء أمامه طويلا متأملاً ومستعبراً هو أن يجىء برهان ربك لكل ابن أو ابنة مذكراً إياها أو إياه بنوع جنايته على أبيه لكى تنتفى لديه كل شبهة فى أن هذا العقاب لأى سبب آخر من أسباب الدنيا سوى عقوقه لأبيه . فيكون عقاب السماء لـمَنْ طلبت لنفسها «الرفعة» بالانتساب لغير أبيها وأشعرته غفر الله لها بأنها « تخجل » من الانتساب إليه هو أن تشقى بحياتها العائلية ويتورط زوجها فى فضيحة أخلاقية قد تدفع أبناءه ذات يوم إلى الخجل من الانتساب إليه بين أقرانهم . « وما ربك بظلام للعبيد » صدق الله العظيم .

ويكون عقاب السماء لشقيقتك التى تحدت أباها وقهرت إرادته وأورثته المرض والشلل ومضت فى مشروعها للارتباط بزميلها بغير أن تأبه لمعارضته أو تبذل أى جهد لإقناعه به وطلب رضائه عنه منذرة إياه بأنها سوف تفعل ما تريد معتمدة فى ذلك على أهل أمها وأنه « لا حاجة لها إليه » ولا إلى قبوله أو رضاه ، يكون عقابها هو أن تشقى فى حياتها الزوجية وترجع بعد رحيل الأب محسوراً ومكلوماً إلى الاعتماد فى معيشتها وتنشئة أبنائها على معاشها عن نفس هذا الأب الذى أشعرته من قبل بأنه لا ضرورة له فى حياتها ولا حاجة لها به ، فكأنما قد أراد الله سبحانه وتعالى أن يرد عليها ضلالها ويؤكد لها أنها كانت وما زالت وسوف تظل فى حاجة إلى هذا الأب الذى يمد الآن مظلته لرعايتها حتى وهو بين يدى أرحم الراحمين و « قليلاً ما تشكرون » صدق الله العظيم .

ويكون عقاب الابن الوحيد الذى أدمن سرقة أبيه لصالح أمه وشاركها الاجتراء عليه والإساءة له الفشل فى حياته العملية ، فتحالفه الخيبة فى كل مشروع يقيمه ويسرقه الآخرون فى كل عمل يبدأه .. ولا يعرف السعادة فى الحياة الزوجية ولا النجاح فى الحياة العملية « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » صدق الله العظيم .

فأما هواجسك ومخاوفك من أن يطالك عقاب السماء على مشاركتك لوالدتك فى إيذاء أبيك وتسترك عليها فى بعض ما ارتكبته فى حقه .. ، خاصة وقد ترفقت بك السماء ، فوفقت فى حياتك الخاصة حتى الآن ، فإن لها ما يبررها فيما رأيته

من برهان ربك فى إخوتك حتى الآن ، غير أنه يخيل إلىّ أن إسهامك فى هذا الأذى كان أقل إلى حد كبير من نصيب إخوتك فيه ، وأن معظمه كان إسهاماً سلبياً بالتستر على ما تفعله أمك فى حق أبيك خوفاً من بطشها ، وليس إسهاماً إيجابياً فى إيذائه بالفعل والقول المباشرين ، ذلك إذا ضربنا صفحاً عن جهالة الطفولة ومسئولية أمك عنها ، كما أن ترقبك للقصاص وتخوفك منه له جانب إيجابى آخر هو استشعارك للجرم الذى مضى وندمك عليه واستغفارك لربك طلباً للصفح عنه . ومن أحزان الحياة الحقيقية أن يرحل عنا مَنْ لم نستشعر الحزن الصادق عما بدر منا تجاههم إلا بعد أن غابوا عنا وتعذر علينا الاعتذار لهم وطلب صفحهم وعفوهم عنا ، فلا يبقى لنا بعد ذلك إلا الرجاء فى الله رب العالمين أن يغفر لنا ما مضى من ذنوبنا ويعصمنا فيما بقى لنا من عمرنا ويرزقنا أعمالاً زاكية يرضى بها عنا كما جاء فى الأثر عن دعاء رجل غريب سمعه الصحابة ذات يوم وهم لا يعرفونه يدعو بهذا الدعاء فى مسجد الرسول بالمدينة ، فرووا عنه للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فأخبرهم أنه الروح الأمين جبريل عليه السلام .

وما أفدح أخطاء الشباب الذى لا يرى كما قال عنه أعظم شعراء روسيا بوشكين « سوى قوته فتدنيه هذه القوة من الحياة وينغمس فيها ويذهله سحرها وأضواؤها فتختم فى بعض الأحيان على بصيرته وتختلط عليه الأمور ويعجز عن التفرقة بين النور والظلام والخير والشر والسعادة والشقاء ».

غـير أن هدى السـمـاء لم يشأ لنا أن نحـتـرق بلسع الندم والألم إلى ما لا نهـاية ، فأرشدنا إلـى أنه لا يلام المرء على أمر قد تـاب عنه فاعله وصـحت توبته عنه وصـدق ندمه علـيه ، وأرشدنا كـذلك إلى أن إكرام أحـد الأبوين الراحلين والاعـتذار له.. إنما يكون بالدعاء الصالح له فى كل حـين والتصدق على روحه والحج عنه إن لم يكن قد أدى الفريضـة وإكرام صاحبه وقضاء دينه .

وبذلك يكون حزن المرء على ما فـاته الاعتذار عنه لأبيه أو أمه فى حـياة كل منهـما صـادقاً وأمـيناً ومن ذلك النوع الذى يقـول عنه الصوفـية إنه من مـقامـات السالكين ويبـعث على الانكمـاش فى الأعمـال « السيـئـة » والنهوض إلى الطاعـات فليكن اعـتذارك لأبيك يا سـيـدتى بالدعاء الصـالح له فى كل حين والتـصدق عليه والإشـادة بفضله وتنشئـة أطفالك على القيم الدينية والأخلاقية التى أساءت إليكم والدتكم كثيراً حين أفسدت بعضها عليكم ، وبغـرس حب الأب واحترامه واحترام ذكرى الجد الطيب الصالح فى نفوس هؤلاء الأبناء .

مع رجـائى الصـادق لك أن يكون سـبب نقـمـتك الآن على ما فعلت والدتك بأبيك وأشركتكم مـعها فيه هو الندم الصادق عليه والحزن الحـقيقى على أبيك الراحل وليست فـقط النقمة على ما فعلت بكم والدتكم التى لم يأتها بعـد فيما يبدو برهان ربها حين طردتكم من بيت أبيكم وحرمتكم من ميراثكم عنه .

الطريق المظلم!

أنا رجل فى الخامسة والأربعين من عمرى متزوج ولى طفلان وأعمل مديراً بإحدى الشركات الكبرى فى إحدى الدول العربية ، وقد بدأت عملى فى الغربة منذ ١٥ عاماً وعشت حياة سعيدة وهادئة مع زوجتى وهى سيدة فاضلة ومحافظة وترعى الله فى علاقتها بى ولم تشهد حياتى معها أية منغصات جادة ، ولم أشك منها شيئاً سوى بعض الغيرة التى قد تتخطى أحياناً الحدود المعقولة .. لكنها فى النهاية غيرة الحب والرغبة فى الحفاظ على كيان البيت والأسرة ، ولهذا فلم أتطلع فى أى يوم من الأيام لأن أعرف امرأة غيرها لتدينى وانشغالى بعملى وأسرتى .

ومنذ ثلاث سنوات انضمت إلى شركتنا موظفة مصرية شابة فى السابعة والعشرين من عمرها استطاعت بعد فترة وجيزة من عملها أن تجذب الاهتمام إلى شخصيتها المتميزة ، فتوزع الزملاء بالنسبة لها بين معجب بها وساخط عليها ، أما بالنسبة لى فلم تكن سوى موظفة من موظفات الشركة أتعامل معها بطريقة عادية وعملية فى نفس الوقت ، غير أن الأمور مضت فيما بعد إلى اتجاه آخر ، فلقد نشأ بيننا بعد عدة شهور ما يشبه الألفة والاهتمام . وبدأت أوجه إليها النصائح فيما يتعلق بالعمل وظروف الغربة

وخاصة بعد أن نشبت الخلافات بينها وبين بعض زميلاتها فى العمل ثم صعّدت زميلاتها هذه الخلافات إلى أصحاب الشركة وتقرر إنهاء عملها وعودتها لبلدها . ولم أتدخل أنا فى هذا الموضوع لا بالتأييد ولا بالرفض .

وقبل موعد سفرها بأيام ، فوجئت بها تطلب الحديث معى على انفراد ولم أجد مانعاً من ذلك خاصة وهى على وشك المغادرة ، وقابلتها بالفعل فى مكان عام ، فراحت تحدثنى عن أنها قد اختارتنى للحديث معى عن مشكلتها لمعرفتها بمدى قربى من أصحاب العمل وثقتهم فىّ ، عسى أن أستطيع نقل وجهة نظرها إليهم ولكيلا ترجع إلى بلدها دون أن يسمع أحد دفاعها عن نفسها ، وكشفت لى عن حقيقة لم أكن أعرفها وهى أنها ليست آنسة كما يتصورها الجميع وإنما هى سيدة مطلقة بعد تجربة زواج مريرة ولها طفلة أخذها والدها منها وهاجر بها للخارج وحرمها منها وتزوج فى المهجر من أخرى ، فعانت الكثير بعد الطلاق من نظرة المجتمع الشرقى للمطلقة ومن المسئولية المادية إلى أن جاءتها فرصة العمل فى الغربة كحل لمشكلتها ، لكن عودتها منها بعد عدة شهور فقط سوف تثير حولها الأقاويل وسألتنى فى النهاية إذا كنت أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلها عسى أن تستطيع الاستمرار فى العمل لفترة مناسبة تجمع خلالها بعض المدخرات وتبدأ بها حياتها فى بلدها ! وتركتها دون وعد منى بشىء .. نظراً لأننى أعلم مسبقاً أن مثل هذه الوساطات تفشل دائماً مع أصحاب العمل .. وتثير ظنونهم تجاه مَنْ يتطوع بها .. وفى اليوم التالى مباشرة كنت أتحدث مع صاحب العمل، فإذا بى أجدنى أقول له دون سابق تدبير إن هذه الفتاة مظلومة

فيما نقل إليـه عنها من وشايات وأنها لم تقترف مـا تستحق عليه الفـصل ، ومن الأفضـل منحهـا فـرصة أخـرى حـتى تتأكـد من صلاحيـتها للعـمل . وكانت المفاجأة أن وافق صـاحب العمل على إعطائها هذه الفرصة الأخرى وإلغاء إجراءات سفرها ، وطلبتها فى مكتبها ورويت لهـا ما حدث، فلم تتمالك نفسـها من البكاء فرحاً ، وعادت إلى عملها بالتزام شديد ونشاط أكـبر واقتصر حديثها مع الزمـلاء على شئـون العمل وحـدها ، وبدأت بالفـعل تكتسب ثقـة الآخرين بمن فيـهم أصحاب العمل أنفـسهم ، ولاحظت خلال هذه الفترة كلما التقيت بها عرضاً نظرة العرفان والشكر والاهتمام فى عينيها ، وبـدأت أسألها من حين لآخر عن أحوالهـا وشئون العمل وأساعدها بالمشورة الصادقـة ، وكان المفترض أن ينتهى كل شىء عند هذا الحد لكنى وجـدتها بغير وعى منى تسـيطر على تفكيرى وأنا الإنسان الملتزم الذى لم تكـن له فى يوم من الأيام أية علاقات نسائية ، ولمست منها قبولاً لتـدخلى فى شئونها الخاصة ، وبدأت ألبى لهـا حتى الطلبـات الخارجـة عن نطاق العـمل كشـراء بعض الأشياء أو إنهاء بعض الإجراءات المطلوبة فى الغربة ، وبدأنا نلتقى خـارج العمل فى الأمـاكن العـامة وصـارح كل منا الآخـر بحبـه وتعمـقت العلاقـة بيننا حتى أصـبحت هى كل شىء فى حـياتى ، وأصبحت أنا كذلك كل شىء فى حياتها ، فكانت لى الحب والدفء والمتـعة والإحـساس بالذات وكنت لـها - على حـد قولهـا - الحب والأمان والحماية والصداقة .

وبعد التورط الكامل فى هذه العلاقـة كان لابد لى من وقفة مع النفس لإيقـاف الانزلاق الكامل نحو الهـاوية التى تؤثر على دينى ودنياى كما هو الحـال دائماً فى هذا الطريق المظلم ، وخاصة أننى

كنت غير مستريح الضمير ودائم الندم بينى وبين نفسى لكنى غير قادر فى نفس الوقت على اتخاذ أى قرار نظراً لسيطرتها الكاملة على مشاعرى .

ثم اتخذت أخيراً قرار الابتعاد عنها وبدأت فى تنفيذه ونجحت فى ذلك لعدة أيام ، فاستخدمت هى كل أسلحتها الأنثوية لاسترجاعى ، بما فى ذلك الاستعطاف والإغراء وإثارة الذكريات ، وحين هددتها بضرورة الابتعاد عن طريقى هددتنى بدورها بإفشاء سر هذه العلاقة لزوجتى بما تملكه من أشياء وأدلة تثبتها ! ففكرت فى الزواج منها تكفيراً عن جريمتى وحتى أستمتع بالحب معها فى المستقبل دون إحساس بالذنب ، وقلت لنفسى خلال تفكيرى فى ذلك إن ظهور هذه العلاقة إلى النور بالزواج وبالرغم مما سوف يترتب على ذلك من مشاكل وآثار سيئة على أسرتى ، لهو أفضل من الخيانة الزوجية ومواصلة الانجراف إلى طريق الخطأ والغواية ، لكن فكرة الزواج لم تلبث أن اختفت وتغلب الجانب العقلانى بداخلى على الجانب العاطفى .

ولجأت بعد ذلك إلى مخاطبة الجانب الدينى فيها وكيف أن هذه العلاقة محكوم عليها بالفشل الحتمى ذات يوم قريب أو بعيد ، واتفقنا على إنهائها تدريجياً وأن تحصل هى على إجازة لمدة شهرين وتسافر إلى بلدها ، فما أن ترجع حتى أسافر أنا فى إجازة مماثلة ، فيطول ابتعادنا عن بعضنا البعض أربعة شهور كاملة ، ويسهل علينا بعد ذلك إنهاء العلاقة ، وسافرت بالفعل فلم تغب أكثر من أسبوعين ورجعت العلاقة أكثر عمقاً وجرأة !

لقد دعوت الله كثيراً أن يخلصنى من هذا البلاء وسافرت لأداء العمرة خصيصاً من أجل ذلك .. وقد أصبح الحل الوحيد الباقى

أمامى الآن هو الاستقالة وإنهاء عملى فى الغربة والعودة لبلدى غير أننى أتشكك فى جدوى هذا الحل ، فماذا أفعل وقد أصبحت الآن على شفا حفرة من الجنون والضياع وأخشى أن أقابل ربى فى أية لحظة وأنا مستمر فى هذه الجريمة الفاحشة !

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مَنْ لا يقدر على نفسه .. لا يقدر على الآخرين يا صديقى .. ولهذا فلسوف تظل هذه « المشكلة » قائمة فى حياتك إلى أن تنجح فى الانتصار على نفسك .. والكف عن الاستمرار فى هذه العلاقة الخطيرة التى تعدك بالقلاقل والاضطرابات فى حياتك العائلية فضلاً عما تفسد به سلامك النفسى بالإحساس المدمر بالذنب والإثم .

ولست أعتقد أن فى الحياة كلها إغراء يستحق أن يتعذب الإنسان من أجله بمكابدة الإحساس المرير بالذنب والإثم ومعايشة الخوف من لقاء ربه وهو مكبل به ، فضلاً عن الخوف من آثار هذا الإغراء المدمر على استقرار حياته العائلية وجدارته بالاحترام والثقة من شريكة الحياة والأهل والآخرين.

ولهذا ، فإنى أقول لك إن معركتك للتخلص من هذه العلاقة الآثمة هى فى الأساس معركة داخلية تدور رحاها فى أعماقك وحدك ، ولا أثر حقيقياً للطرف الآخر فى استمرارها أو حسمها فى الوقت الملائم ، مهما كانت مغرياته أو أسلحته أو تهديداته، وحين تنتصر على « الخائن الصغير » الذى ينطوى عليه صدرك ويجذبك إلى هذه السيدة الشابة ، فلسوف تملك إرادتك معها وتنجح فى وضع حد لقصتك معها مهما أرعدت بالوعيد والتهديد .

والحق أننى لا أفهم كيف يخشى رجل امرأة يريد قطع علاقته غير المشروعة بها والعودة إلى الطريق القويم ، ولا كيف يمكن أن يخضع لتهديداتها بإفشاء سر علاقتها به، فيتراجع عن قراره بقطعها ويرجع إلى النهل من معينها ، ذلك أن هذه التهديدات الجوفاء إذا نفذتها صاحبتها بالفعل إنما تصيب صاحبتها بالضرر بأكبر مما تصيب الطرف الآخر به اجتماعياً وعائلياً وإنسانياً ، ولا شك أن شريكتك فى هذه العلاقة إذا وثقت من أنها لن تجنى ثمرة حقيقية لفضح سرها معك لزوجتك كإرغامك أدبياً أو من باب الحرج الاجتماعى على الزواج منها ، فإنها سوف تتردد ألف مرة فى إفشاء هذا السر ، اللهم إلا إذا كانت قد تملكتها روح الانتقام الشريرة وتحول ما تزعمه من حب غير صادق لك إلى كراهية شعواء ورغبة عارمة فى تدميرك وهذا ما لا يحدث أبداً فى حالة الحب الحقيقى المبرأ من مثل هذه النزعات المدمرة سواء استمرت العلاقة أو انقطعت .

ولقد لفت نظرى فى وصفك لما تمثله لك هذه السيدة الشابة قولك إنها قد أصبحت بالنسبة لك الحب والدفء والمتعة .. وإثبات الذات ، ووصفها هى لك بأنك قد أصبحت بالنسبة لها الحب والأمان والحماية والصداقة !

وتوقفت أمام ما تعنيه أو ما كانت تعنيه لك فى بداية علاقتك بها من إثبات للذات ! وأحسب أنك كنت صادقاً تماماً فى هذا التعبير لأن جزءاً من اندفاعك نحوها كان يتمثل من حيث لا تدرى فى هذه العبارة .. إثبات الذات .. أى الإحساس بالزهو الداخلى لجدارة المرء برفقة امرأة شابة جميلة لا يحل

له نيلها بالطريق المشروع إلا عبر خطوات عائلية طويلة وأعباء جسيمة .. ولو ناقشت الأمر مع نفسك الآن بعد فورة الاندفاع العاطفى المبدئية لوجدت أنك لست فى حاجة إلى إثبات ذاتك بمثل هذه العلاقة غير المشروعة .. ولا هو من الفخر والزهو فى شىء أن يشعر الإنسان بجدارته عن طريق التورط فى مثل هذه العلاقة الخطيرة .. لأن أى رجل عابث مهما صغر شأنه يستطيع أن يعثر على مَنْ تتورط معه فى علاقة مماثلة كما أن أى امرأة غير متحفظة تستطيع كذلك لو أرادت أن تنشىء مثل هذه العلاقة مع طرف آخر فى أى وقت ، ولا « بطولة » فى ذلك ولا فخر وإنما البطولة الحقيقية هى فى الالتزام الخلقى ومقاومة الإغراءات والاعتصام بالإخلاص والوفاء لـمَنْ ارتبطت به حياة الإنسان ..

وكما لفتت نظرى هذه العبارة التلقائية فى رسالتك ، فلقد لفت نظرى أيضاً وصفها لما تمثله أنت لها من حب وأمان وحماية وصداقة ذلك أنه وصف لا يخلو من صدق فى الحقيقة.. ولا يخلو فى نفس الوقت من شىء من الاعتبارات العملية التى لا علاقة لها بالعاطفة . فالأمان والحماية هنا ليس هما بالتأكيد الأمان والحماية العاطفيين اللذين تشعر بهما المرأة إلى جوار مَنْ تحب فى الظروف العادية ، وإنما هما أمان وحماية يرتبطان بشكل أو بآخر بأوضاع هذه السيدة الشابة فى الغربة .. وحاجتها إلى حمايتك لها فى العمل من مؤامرات الزميلات ووشايتهن بها ، ومن خطر الفصل من العمل والعودة إلى بلدها .. أى حاجتها فى النهاية إليك كمدير بالشركة وشخص موثوق به من جانب أصحاب العمل لكى

تأمن الفصل المفاجىء والطرد من العمل .. فأى شىء فى ذلك يشعرك بإثبات الذات « كرجل » وإنسان يا سيدى ؟

إن بداية علاقتها بك ترجح هذا الاحتمال إلى حد كبير ، فلقد اقتربت منك لأول مرة لكى تستشفع بك لدى أصحاب العمل لوقف قرار فصلها ، وهى بداية « مصلحية » وليست عاطفية مجردة من الحسابات العملية بأى حال من الأحوال .. ولست أريد أن أحكم على حقيقة مشاعرها تجاهك الآن إذ لا يحكم على القلوب إلا خالقها سبحانه وتعالى ، لكنى أريد أن أقول لك فقط إنه بقليل من مغالبة النفس والحزم والإرادة تستطيع إيقاف تورطك فى هذه العلاقة قبل أن تخرج آثارها السلبية المؤكدة على حياتك العائلية عن نطاق السيطرة ، فتدفع ثمناً فادحاً لعلاقة تسلم أنت فى أعماقك بأنها سوف تصل إلى نهايتها المحتومة إن آجلاً أو عاجلاً .

فإذا كان من المتاح أن تنتهى هذه العلاقة بغير أن تخلف وراءها بصمات غائرة على علاقتك بزوجتك أو بغير أن تدمر حياتك العائلية ووضعك الاجتماعى كرب أسرة ، فما وجه الحكمة فى أن تنتهى نفس هذه العلاقة بعد حين وقد خلَّفت وراءها حطام أسرة صغيرة كانت سعيدة ومستقرة وآمنة قبل التورط فيها ؟

الكـــلام المـــر

لا أعـرف كيف أبدأ رسـالتى هذه إليـك ، ولا ماذا سـيكون رد فعلها على مَنْ كتبتها من أجله .. لكنى شعرت برغبتى الشديدة فى أن أستعين بك على حل مشكلة حياتى ..

فأنا سـيدة فى الثـامنة والثلاثين من عـمرى نشـأت فى أسرة متحـابة ومتعاونة على ظروفـها ، وكان أبى موظفـاً بسيطاً وأمى ربة بيت لا تعمل ونحن الأبناء أربعة « ولدان وبنتان » أنا أكبرهم، وقد نشأنا فوجـدنا أبانا يكافح لتوفير متطلبات الحـياة لنا بمشقة بالغـة وأمى تساعده بكـل ما تملك من قـدرة وموهبة على تـدبير شئـون البيت ، وألفنا أن نعـرف شيئـاً من يسر الحـياة فى أوائل الشـهر وأن نـتحمل جفافـها فى بقية أيـامه ، كما اعتـدنا أيضاً أن نشترى بالأجل بعض الضروريات من المحل التجارى الذى يتعامل معـه أبى منذ سنوات طويلة ، وتربطه بصـاحبه صـداقة قـديمة ، وكان هذا الرجل كمـا عرفت وأنا ما زلت بعد طفلة صـغيرة .. هو ملجـأ أبى الأخيـر إذا استحـكمت الأزمة ، فـيقتـرض منه بضـعة جنيهات إلى أن يأتى الفرج .. وتقدمنا فى مراحل التعليم ، وحققنا جمـيعاً تفـوقاً دراسياً بغـير الحاجـة إلى الدروس الخصوصـية ، وحين تفتـحت مشاعرى للحـياة اتجهت تلقائيـاً إلى الابن الأصغر

لصاحب المحل التجارى .. فلقد لفت نظرى بوسامته وأدبه الجم وخجله .. وتمنيته لنفسى .. وانتظرت أن يتقدم أى خطوة فى طريق الاقتراب منى، فلم يفعل .. فازددت اهتماماً به ، وتشجيعاً له على البوح لى بمشاعره ، إلى أن صارحنى بها بعد صبر طويل وصارحته بحبى له ، وفهمت منه أن أحد أسباب تردده فى مصارحتى بمشاعره هو أننى أدرس بكلية مرموقة .. وهو قد تعثر فى دراسته ولم يكمل تعليمه العالى .. فتعجبت لأن يكون ذلك سبباً لعدم ترحيبه بى فى البداية ، وظننت لبعض الوقت أنه لا يرانى مناسبة له من الناحية الاجتماعية ، لأن أحواله المادية أفضل بكثير من أحوالنا ، وأشقاءه كلهم يشغلون مركز عالية ويقيمون جميعاً فى بيت يملكه الأب فى نفس الحى الذى نقيم فيه، ولم أخف عليه هذا الظن . وارتبك كثيراً وأحمر وجهه ، وهو شديد الخجل والحياء بطبعه ، وأقسم لى أنه لم يفكر فى ذلك لحظة واحدة ، وارتحت لما قال .. وواصلت دراستى فى اطمئنان .. وفى إجازة الصيف تقدم لخطبتى بعد صراع قصير مع أشقائه الذين رفضو ارتباطه بفتاة من أسرة بسيطة مثلى ، فى حين لم يعارض والده رغبته ربما إشفاقاً عليه من سوء حظه فى التعليم ، وهو الوحيد الذى يساعده فى العمل ، وربما إكراماً لصداقته القديمة لأبى .

ومن اللحظة التى أعلنت فيها خطبتى صارحنى خطيبى فى حياء برغبته فى أن يخصص لى مصروفاً شهرياً من جيبه لأستعين به على دراستى والحفاظ على مظهرى ، ولم أجد مانعاً فى ذلك ، فأنا فى حاجة شديدة لمثل هذا المصروف ، وبدأ بالفعل يعطيه لى ، وبدأت أعتمد عليه فى حياتى ، بل إننى فى بعض

الأحيان كنت أساعد بجزء منه أمى سراً .

وتخرجت متفوقة وأتاح لى تفوقى الحصول على عمل ممتاز .. وبدأت الاعتماد على نفسى .. وبعـد عامين من تخرجى تم زواجنا وتكفل خطيبى بمعظم تكاليـفه .. وأقمت فى شقة صغـيرة بالبيت الذى تملكه أسرة زوجى فى المطرية ويقيم فيه كل أبنائها .

وتخرج أخوتى جـميعاً وعملوا وتزوجت شقـيقتى وأخى الذى يليها ، وأحيل أبى للمعاش .. وحـصلت أنا على الماجستير ، وبدأت أعد للدكتـوراه وأتيحت لى فرصة السـفر إلى أوروبا لإعداد المادة العلمـيـة للرسـالة .. فلـم يرفض زوجى سـفـرى ، ولم يقف فى طريقـى بالرغم من أنـنى كنت قـد أنجـبت طفـلة وطفــلاً ، بل وساعـدنى ببعض المال على إنهـاء مهـمتى ، واستـغرقت بعـثتى بضـعة أشهـر ورجعت وحـصلت على الدكـتوراه وسعـد زوجى بحصولى عليهـا كثيراً .. وأتاحت الدرجة العلميـة فرصة الانتداب إلى عمل جديد بمرتب مغر فى هـيئة دولية . وخلال هذه السنوات كان والد زوجى قـد توفى ، واستقل زوجى بإدارة تجـارته نيابة عن إخوته ، وبدأ زوجى يشكو لى من حـين لآخر من تعنت بعض الإخوة معه وكـثرة مطالبتهم له بالمال بصفة شـهرية دون مراعاة لالتزاماته وديون التجارة .. ورحت أشجعه على الصمود وتخطى الصعاب ، لكن الأمور صـارت فى الاتجاه العكسى وساءت أحوال التجـارة أكثـر وأكثر ، وتراكـمت الديون ، وساءت عـلاقة زوجى وإخوته حتى اتهمه أحدهم صراحـة بالسرقة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه طاهر اليد ، وكان يعـانى ضائقة شديدة وتوقفت عن أخذ أى مصـروف للبيت والأبناء منه ، وأعتمـدت على مرتبى فى الإنفاق على الأسرة .. لكى يحاول إنقاذ التجارة من الانهيار ..

ومـرت به وبى فتـرات عصـيبـة .. وازدادت العلاقـة بين زوجى وبعض إخوته تدهوراً حتى هدده أحدهم باللجـوء للقضاء ، فانهار زوجى باكيـاً وطلب منه أن يتسلم منه التجـارة ليديرها هو أو مَنْ يراه ويعطيه أى مصروف شهرى يقدره له .

وتم ذلك بالفعل وأصبح زوجى ينهض من نومـه صباحاً ، فلا يجد ما يفـعله سوى توصيل الطفلين للمدرسة وإعادتهـما منها .. فى حين أذهب أنا إلى عـملى فى السابعة صـباحاً ، ويستـغرقنى حتى الخامسة مساءً .

أما مصروفـه الشهرى ، فلم يكن يكفى نفقات البـيت لأكثر من أسبـوع ، وأتحمل أنا بقـية النفـقات . وشيـئاً فـشيـئاً لاحظت أن زوجى يزداد صمتـاً وانطواءً واستغراقاً فى ذاته .. فـتصورت أن بطالته هى السبب الأساسى لحالته هذه ، وجلست معه ذات مساء وناقـشتـه فى أحواله .. وألحـحت عليـه بضرورة أن يمـارس أى عمل.. فـسألنى وأين هو العـمل الذى أمارسـه .. وأنا لا رأس مال لدى .. ولا شهـادة ؟ فبكيت إشفاقـاً عليه وأنا أعلم جيـداً ما يدور فى نفسـه وما يستشـعره من حرج كرجل من قـيامى عنه بمعظم مسئولية البيت .. وعرضت عليه أن أسعى لإلحاقه بعمل فى الهيئة التى أعمل بها وسعيت بالـفعل لدى مديرى فى ذلك .. فقال لى إن العمل الوحيد المـتاح حالياً هو عمل سائق بعقـد مؤقت على إحدى سيارات الهيئة .. وتـرددت فى عرضه عليه لكن ازدياد قلقى عليه من بطالته دفـعنى لأن أعرض عليه هذا العمل ، فقـبله بعد تردد ، وأصبح يعمل معى فى الهـيئة نفسـها .. وتفاقمت مـشاكل التجارة حتى انـقطع عن زوجى مصـروفه وأعتـبره شـقيقـه الذى تولاها مديناً لها وليس مستحقاً فى أى عائد منها .

ولا أدرى مـاذا حدث بعـد ذلك فى علاقـتى به .. فلقد وجـدت زوجى يتحفظ تدريجـياً فى تعامله معى ، ويبتـعد عنى ، ويصبح شديد الحساسية تجاهى ، فإذا تلاحينا فى أى أمر من أمور الحياة الزوجيـة المعتادة بيـن كل زوجين أجده شـديد الاكتئـاب والحزن بعدها لفترة طويلة .

ثم حدث ذات مرة أن تشاجرنا لسبب عارض .. فإذا بى أجدنى ولأول مرة فى حـياتى معـه أفقد أعـصابى ويفلت لسـانى ببضع كلمات جارحة له ولرجولته .. وأشير إلى تحملى للعبء الأكبر من المسئولية المادية عن الأسرة وإلى كسله وقلة طموحه .. و« خيبته» وغـير ذلك مما أشـعر بالخـجل منه كلمـا تذكرته .. فـإذا بزوجى ينفجر فىّ بدوره ولأول مرة أيضاً ويـقول لى إنه قد صبر طويلاً على سوء معاملتى له ، وإشعارى له بالعجز كرجل و « بامتيازى» عليه بالشـهادة والمنصب والمرتب الكبـير من الهـيئة وأننى أعـيره بظروفه وسـوء حظه مع أنه لم يعيرنى من قبل بظروفى الـسابقة حين كنت فتـاة بسيطة وكان هو الشاب القادر مـالياً وابن الأسرة الكبيـرة وأنه يرى أن المشكلة ليست فى ظروفه وحـدها لكنها فى تغير مشاعرى نحوه وإحساسى بإننى أصبحت أشعر بعد تحسن ظروفى بأننى أسـتـحق زوجاً أفـضل منه يتناسـب مع شهـادتى ووضعى ووظيفتى .. إلخ .

ولا أدرى أين كان عقلى حـين استجبت لهذا الاستـفزاز ، فإذا بى أجيبـه بأن كل ما قال صحيح .. وإننى أسـتحق مَنْ هو أفضل منه بالفـعل بعـد أن صبـرت على ظروفـه كثـيراً ، ورأيت أنه قـد استنام للوضع الحالى بلا أى أمل فى التقدم .. وأفقت من اندفاعى حين وجـدته ينظر إلىّ ذاهلاً ومتألماً ثم يقول لى بصـوت خافت :

عندك حق فى كل ما تقولين « يا دكتورة » .. ولن أقف فى طريقك بعد الآن .. أنت طالق ! ثم غادر الشقة وأنا مازلت ذاهلة ..

وتصورت أنه سوف يبيت ليلته فى شقة والدته فى نفس البيت ويرجع فى الصباح ويردنى .. فـإذا الأيام تمضى بعد ذلك ولا أثر له .. وبعد أسبوعين تنازلت عن كبريائى وصعدت إلى شقة والدته لأبحث عنه وأعـتذر له أمـامهـا وأقـبِّل رأسه وأطلب منه الصـفح عنى.. فقابلتنى والدته بجـفاء وانهالت علىَّ لوماً وتقريعـاً وتذكيراً لى بما كـان من حالى وحال أسـرتى قبل زواجى من ابنـها ، وبما فعله زوجى مـعى .. إلخ ، وتحملت كل ذلك صابرة وبكيت أمـامها وأعتذرت وقلت لها إنـنى شعرت بخطئى من اللحظة الأولى وإننى نادمة عليه ، وأعرف أننى لا أسـتحق ظفر زوجى لأنه إنسان طيب وحنون ومهـذب وكريم ولم يخطىء فى حـقى أبداً ، وأننى أريدها أن تتوسط لديه وتحـثه على أن يصفح عنى ويردنى إلى عصـمته ليس فقط من أجـل الطفلين وإنما من أجلى أنا أيضاً لأننى أحـتاج إليه .. ولا أستطيع الاستغناء عنه .. فرق قلب والدته لى لأول مرة منذ بدأ الحديث وشاركتـنى البكاء ، ثم قالت لى فى النهاية : ولكن أين هو لكى أقول له كل ذلك !

وعرفت منها أنه قد طلب منها مـساعدته على السفر للعمل فى إحدى الدول الأوروبـية مع أصدقـاء له سبـقوه إلى هناك ، وأنـها باعت شهـادة إدخار وأعطته ثمن التذكـرة ومبلغاً لمواجهـة نفقات الحيـاة ، وإنه قال لها إنه سـيكافح لكى يصنع نجاحـه فى الغربة ولن يرجع إلا إذا اسـتقرت أحـواله ، وطلب منهـا استـمرارى فى المسكن لرعاية الطفلين إلى أن يبلغا سن حضانته لهما .

وانهـرت حين علمت منهـا ذلك وبكيت طويلاً وتساءلـت : ماذا

فعلت بنفسى وحياتى فى لحظة من الحمق والجنون ؟

لقد أحـببت زوجى هذا وأنا فى الســابعة عـشرة من عـمرى ، وما زلت أحـبه ولا أنسى له أفضاله عـلىّ ، لكنها ضغوط الحـياة القاسية التى أوقعتنى فى الخطأ وأفقدتنى والد طفلى .

فماذ أفعل يا ربى لكى أسترد زوجى ؟

لقـد انتظرت أن يرق قلبـه لى ويتـصل بى عـدة أسـابيع دون جدوى ورجوت والدته أن تلح عليه حين يتصل بها تليفونياً فى أن يردنى إلى عصمتـه بكلمة واحدة .. ولسوف أظل فى انتظاره إلى أن يرجع مهـما طال الانتظار .. لكنه لم يتـصل طوال فتـرة العدة التى يستطيع مراجعتى خلالها .. وسـألتنى والدته إذا كنت أريد أن يرسل توكيلاً لشقيـقه لكى يطلقنى به إذا اتصل بها من الخارج ، فبكيت وصرخت بأننى لا أريد ورقة الطلاق ولا أريد إلا أن يردنى زوجى إلى عصمته ويغفر لى « قلة أدبى » وطول لسانى ..

وهأنا إلجأ إليك الآن لكى تعيننى على تحـقيق هذا الأمل ، فلقد مضت عـشرة شـهور على سـفر زوجى دون أن يتـصل بى مرة واحدة .. ولست أعـرف وسيلة للاتصــال به لأنه يتكلم مع والدته من التليفونات العـامة وقد علمت أنه يعمل « نقاشاً » بالـيومية مع أصدقائه ويقيم مع ٧ أفراد فى شقـة ضيقة من غرفتين ، ولا يكاد دخله يكفى نفقـات حياته فضلاً عن أنه يعـيش فى خوف دائم من أن ترحلـه الشـــرطة إلى بلـده فى أى وقت لأنه دخل هـذه الدولة بتـأشيرة سـياحـية وانتـهت وليس من حـقه العـمل فيـها دون تصريح.. فلمـاذا يتحـمل هذا العناء .. وله فى مصـر بيت وزوجة نادمة وطفلان يسـألان عنه كل يوم ، وأسـرة ، وأم وإخوة ؟

أننى أرجوك أن تناشــده العودة إلىّ وردى إلى عصمـته لأننى

فى حاجة شــديدة إليه وطفلاه يفتقــدانه بشدة وهو الأب العطوف الحنون . وأرجوك أن تقــول له على لسانى إننــى بدونه لا أساوى شيئاً .. ومستعدة للاستقالة من عملى فى اليوم الذى يرى فيه أنه هو قــد أصبح يكســب دخلاً يكفى لمطالــب الأسرة والأبناء ، فــقط أريده أن يرجع إلىّ وإلى طفليه وأمه التى تفتقده وشقيقته الكبرى التى مازالت تخاصمنى وتعتبرنى المسئولة عن « تطفيشه » ألتمس لها العذر فى ذلك .. فهل يرجع ويستجيب ويصفح يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أرجو ذلك من كل قلبى يا ســيدتى .. فالحق أننى استــشعر صدق ندمك على ما بدر منك تجاهه وصدق مودتك له ورغبتك فى اســتعــادته لنفسك وطفليك والحــفاظ على كــيان أســرتك الصغــيرة مــعه . وهذا وحده يكفى لأن يشــفع لك لدى زوجك « السابق » فى أن يــغفر لك جــرحك لكرامتــه كرجل ويواصل رحلته معك .

غيــر أننى أشعر بأنك قد اســتدرجت بغيــر وعى منك خلال الفترة العــصيبة السابقــة فى حياتكما إلى التعــامل معه على نحو أشعره بتراجع أهميته بالنسبة إليك كزوج ورب للأسرة وأب للأبناء ، وأقول لك إنك قد « اســتدرجت » لأن هذا التطور الخطيــر فى علاقــة الزوجــة بزوجهــا يبــدأ غالــباً على نحــو تدريجى ويضطرد دون أن تلتــفت فى البــداية لخطورته على علاقتها به إلى أن ينفجر الموقف بينهــما فجأة كما تسرى النار حتى الرماد ثم نفاجأ بها وقد اشتعلت دون سابق إنذار .

ولقد أشرت فى رسالتك إلى أنه قد بدأ يتحفظ معك ويبتعد عنك ويصــبح شديد الحــساســيــة تجاهك ويســتسلم للحــزن

والاكتئـاب لفترات طويلة عقب كل مـلاحاة بينه وبينك ، دون أن تنتبـهي إلى أنه قد بدأ يشعـر بالنقص تجاهك ، وبالعـجز كـرجل عن أن يكون عـائل الأسـرة الرئيـسي .. فيـدفـعك هذا التنبـه في الوقت المناسـب إلى تفـادى كل ما يشـعـره بعـدم الجدارة كرجل فى علاقتك به أو يدفـعك ذلك إلى التفكير جدياً فى إعانته على أمره وحثه على ممارسة أى عمل مناسب له أو تشـجيـعه على الـقيـام بأى مشـروع صـغيـر ولو فى بيتـه ومساعدته على ذلك ببعض مدخراتك .

فكان أن واصلت النار سـريانهـا حتى الرمـاد حتى جـاءت لحظة الانفـجـار ، وبدلاً من أن تحـتـرسى من الاقـتـراب من « الدائرة الحمراء » التى لا تسـامح لدى زوجك مع من يقترب منهـا وهى دائرة إحسـاسه بالعـجز وعـدم الجدارة وتميـزك عليه، إذا بك تنفـذين إلى قلب هذه الدائرة مباشرة وتعـيّرينه بظروفه وانعدام طموحه وكسله « وخيبته » ، فإذا انفجر فيك لأول مـرة واتهمك بالإحـساس بعـدم جدارته بك كـزوج لك ، لا تستشعرين خطورة الموقف ولا أنه قد تجاوز دائرة الخلاف العارض بين أى زوجين إلى مـا هو أبعد من ذلك مدى ، وإنما تستجـيبين للأسف لإغراء التـصعيد والحمـاقة وتؤيدين ولو كلامياً إتهامه لك بأنك تتطلعين إلى زوج أفضل منه !

ولو أنك قد أدركت عـمق الجرح الذى صنعتـه هذه الكلمات المرة فى أعماق زوجك لترددت ألف مرة قبل النطق بها .

ومن الكلام المر مـا يمكن أن يكون لعنة علـى قائله قـبل أن يكون كذلك على مَنْ يوجه إليه .

فلقد أشعرت زوجك من غير وعى بأن مَنْ كان « الأرقى » مادياً وعائلياً واجتماعياً فى الزمن القريب قد أصبح الآن «الأدنى» والأسفل حتى ليشعر بعدم جدارته بك وبرغبته فى أن يعفيك من قيد الوفاء له لكى تنالى من الحياة ما هو أفضل من استمرار الارتباط به .

ولا شك أن كلاً منكما مخطىء فى ظنه بالآخر .. وفى ظنه بنفسه كذلك ! فلا أنت يا سيدتى رغم قلة احتراسك فى التعامل معه بعد تغير أحواله تشعرين بالفعل بعدم جدارته بك ولا بحاجتك إلى مَنْ هو أفضل منه .

ولا هو كما يعتقد كان يفسح الطريق أمامك لكى تنالى هذا الأفضل حين ألقى عليك يمين الطلاق واختفى من حياتك وحياة طفليه الصغيرين .. وكلاكما فيما أتصور أكثر احتياجاً إلى الآخر مما يظنه شريك حياته فيه .. لكنه مرة أخرى الحمق والاندفاع والكلام المر الطائش الذى يندفع من فم قائله فيزلزل الحصون المنيعة ويخنق زهور الحب فوق أغصانها .

فلقد تصور زوجك بسبب هذا التراشق الأحمق بينكما وما سبقه من تغيرات فات عليك تقدير خطورتها فى حينها أن دوره فى حياتك قد انتهى بعد أن كان « أملاً » بعيد المنال لك فى ظروفك السابقة .. وبعد أن ساعدك على أمرك ودراساتك العليا وارتقيت أنت فى السلم الاجتماعى خطوات موفقة فى حين قلبت له هو الدنيا ظهر المجن ونزل بضع درجات فى الاتجاه العكسى .. فتوهم خطأ أنك ممن يتعاملون مع الآخرين بمنطق السلطان سليم فى التعامل مع سلطان المماليك طومان

باى .. وما أكثرهم فى الحياة للأسف .

فلقد هزمت جيوش سليم جيش طومان وجىء به إليه مغلولاً ، فأمر بحل قيوده وتحركت له عواطفه كما قال ابن اياس فى تاريخه ، وأذن له بشهود الاجتماعات التى يعقدها للتداول فى أمر البلاد التى فتحها وكان يسأله فى مسائل كثيرة عن أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية ويستفيد بخبرته بها وظل على هذا الحال عشرة أيام ، وفى اليوم العاشر رأى سليم الأول أنه لم يعد فى حاجة إلى مشورة طومان باى ، فأمر بشنقه وتعليق جثته على باب زويلة !

وهكذا قد يفعل بعض البشر أحياناً بمَنْ يكونون فى حاجة إليهم فى بعض مراحل حياتهم ، فإذا تغيرت أحوالهم إلى الأفضل وانتفت الحاجة إلى مَنْ كانوا فى حاجة إليهم أمروا « بشنقهم » معنوياً واستغنوا عنهم ! لكنى لم أشعر خلال قراءتى لرسالتك بأنك واحدة من هؤلاء البشر ..

ومن واجب زوجك بالفعل تجاه نفسه وتجاه طفليه وتجاهك أن يعيد النظر فى موقفه منك وفى غربته غير المجدية كثيراً هذه فى ظل ما أعرفه عن ظروف العمل فى هذه الدولة الأجنبية .. فالحق أنك فى حاجة إليه بأكثر مما يتصور هو نفسه ناهيك عن حاجة طفليه إليه .. فليرجع إذن ولو بعد وقت مناسب إذا أراد جمع أى مدخرات محدودة تسمح له ببدء أى عمل صغير فى بلده وليعدك إلى عصمته توثيقاً لروابطكما الأبدية معاً .. وليؤمن دائماً بأنه بفضائله الأخلاقية وحسن عشرته لمَنْ يشاركهم حياته وحسن رعايته لأطفاله .. إنما

يؤدى دوراً مـهـمـاً فى الحـيـاة مـهـمـا كـان وضـعـه المادى والاجتـمـاعى فـيها ويفـضُل كثـيرين ممن أتاحت لهم الحـياة بعض مـا لم تتحـه له حـتى الآن .. وإذا رغب فى أن يتحـدث معى حـول هذا الأمر لوقت أطول ، فليتـفضل بالاتصال مـساء السـبت بـعـد القـادم بإذن الله أو فلـيكتب لى برقم تلـيفـون أستطيع الاتصال به خلاله وشكراً له ولك .

دوائـــر الدوامـــة !

أرجــو أن يتســع صدرك لمشكلتى لأنى فى أشد الحــاجــة إلى مشورتك ، فأنا شاب فى الثـلاثين من عمرى أعمل بالتعليم ، ومن أسرة طيـبة ، ومنذ أربع سنـوات أعجبت بفـتاة كـانت تتلقى منى درساً خاصاً وهى فى السنة الأولى بكليتها الجامعية ووجدت فيها كل المواصــفات التى أتمناها فى شــريكة حيــاتى ، فتــحدثت إليــها برغــبتى فى الارتبــاط بها ووجـدتها قـد سبقـتنى إلى الإعــجاب بشخصى وتتمنى الارتباط بى ، غير أنه كانت هناك مشكلة هى أن والدها يرفض أن ترتبط بأحد قبل أن تنهى دراستــها وتتخرج مع وعد منه لها بأن يزوجها ممَنْ تختاره لنفسها إذا التزمت بشرطه . وأكـدت لهــا استــعــدادى لانتظارها أربع سنـوات حتى تتــخــرج ويتحقق شــرط والدها وتعاهدنا على ذلك ثم سافرت بعـد بضعة شهــور للعمل بإحدى الدول العربيــة وظللت على عهدى لفــتاتى ، وترقبت مرور الشهور والسنين لكــى أتقدم إليها . حين بلغت هى السنة الثالثــة الجامعــية فاتحت والــدها برغبتى ، فــرحب بى أشد الترحــيب وطلب منى الانتظار للعام المقــبل حتى تتخــرج ووعدنى بأن تكون ابنتــه لى وليس لأحــد غــيرى ، وأطمــأننت إلى وعــده وسافرت إلى عملى وتواصلت الرسائل بينى وبينها ، ورجعت فى إجازة العــام التالى .. وتحدثت إلى عم فــتاتى برغبــتى فى تحديد

موعد مع شقـيقه لأتقدم إليه مع أسرتى طالبـاً يد ابنته ، ووعدنى العم خيراً .. وبعد ساعات رجع إلىّ بالرد ، فإذا به الرفض القاطع البـاتر بلا أسبـاب ولا مبـررات ، وأصابنى الذهول ودهش مـعى أهلى الذين كانوا قد عرفوا فتـاتى خلال السنين الماضية وأحبوها وتعلقوا بهـا وكانت تقـوم بزيارتهم خلال سفـرى ، وحرت فيـما أفـعل إزاء هذه المفاجـأة غيـر السارة ، وحـاولت أن أعرف سـبب الرفض، فـعـرفت أن والد الفـتـاة قـد اتفق مع أحـد أقـاربه على تزويجها لـه وأنها فى حالة نفسيـة سيئة لكنهـا لا تستطيع إقناع أبيها بالوفاء بوعده أياها ألا ترتـبط إلا بمَنْ تختاره ، ولم استسلم لليأس من تغيير موقـفه ووسطت لديه كل من آنست منه استعداداً للتدخل فى الموضـوع ، فأصر على رأيه إصراراً غـريباً ، وحاولت الفتاة معه بكل مـا أوتيت من جهد ، فكان رده على كل محاولة من جانبها إقناعه بقبولى هو الضرب المبرح واشتد ضيقى وكربى إلى أن جاء يوم وقالت لى فتاتى إنه لا فائدة من المحاولة مع أبيها لأنه عنيف للغـاية وعنيد ويريد على حد تعـبيرهـا أن « يبيعـها » لـمَنْ يستطيع أن يدفـع أكثر ونصـحتنى النصيـحة اليائسـة بألا أضيع ما بقى من إجـازتى فى محاولة نطح الصـخر الذى لا يلين ، وأن أرتبط بفتاة غيرها . وفى فترة ضيق بكل شىء سلمت باليأس من فتـاتى ، وحاولت شغل فكرى عنهـا بالارتباط بغيـرها .. وبالفعل تقدمت إلـى صديقة لهـا لا تعرف عن قـصتنا شـيئـاً سوى أننى تقدمت لطلب يدها ورفض والدها طلبى . ورحب بى والد الصديقة لكنه أصر علـى ألا تكون هناك فترة خطبـة وأن أعقـد القران على الفور ولم أجد مانعـاً من تلبية رغبته ، فتمت الخطبـة وعقد القران خلال أسبوع واحد ، وانتـظرت أن تشغلنى هذه الخطوة عن فتاتى السـابقة واسـتريح من التـفكير فـيهـا ، فلم يتحـقق ذلك وظللت مشـغول الفكر بهـا بالرغم من عقد قـرانى على خطيبـتى وخطبة

فتاتى إلى قريبها وازدادت فـترات صمتى وانشغال فكرى وأنا مع خطيبتى ، فلم أجد مـفراً من مصارحتها بما أعـانيه ووجدت لديها صدراً رحـباً لهمومى وحـاولت التخفـيف عنى بقدر الإمكان ، بل وحاولت أيضاً أن تكون واقعية وأن تسـاعدنى على تقبل الحقائق، فأبلغتنى بأن فـتاتى السابقة مريضـة وأنها لن تغضب إذا اتصلت بها للاطمـئنان عليها وتوديعـها قبل سفـرى إلى عملى ، واتصلت بفتاتى السابقة بالفعل ووجدتهـا فى حالة سيئة ، فضعفت إرادتى واعتـرفت لها بأننى ما زلت أحـبها ولا أستطيـع نسيانها والبـعد عنها.. فقالت لى بصوت حزين إنه قد فات أوان هـذا الحديث وأنه عـلى كل منـا أن يتقبّل أقداره ، ويكفيها أنها لم ترفضنى بإرادتها ولم تقـبل خطيبـهـا الذى لم تشـعر مـعه بالانسـجام حـتى الآن برغبـتها . وسـافرت مضطرباً ومـهموماً .. وبعـد سفرى بفـترة قصيرة رحل والد فتـاتى الأولى عن الحياة ، وطلبت منى خطيبتى فى اتصال تليفونى بيننا أن أواسيها فى فقده، فتعجبت لتصاريف القدر .. وازداد شـعورى بالندم على تسرعى فى عقـد قرانى على فتـاة أخرى سـواها .. وأصبح شـاغلى الأكبر منذ ذلـك الحين هو كيف أسـتطيع حل مشكلتى بغـير أن أظلم خطيـبتى التى احـتوت انشغال فكرى بغيـرها .. ولا ترفض أن تكون زوجة ثانية إذا كان ذلك سوف يسعـدنى ويحقق راحتى، فماذا أفعل يا سـيدى وكيف أخرج من دوائر هذه الدوامة التى تدور بى بعنف منذ علمت بوفاة والد فتاتى الأولى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

إذا كنت فى رد سـابق قـد أدنت الاخـتيـار العـاطفى لزوج عاشر زوجته ٢٢ عاما، فلم ينكر عليـها شيئاً وزوجة عاشرت زوجها ربع قرن من الزمان بلا مشاكل جدية ، فما أن التقى كل منهما بالآخر بعد غيـبة السنين حتى تجدد الحب القديم الذى

سبق زواج كل منهما .. وهجر الـرجل زوجته وأبناءه الشباب الذين يرون فيـه مثلهم الأعلى وهجرت المرأة زوجـها وأبناءها الثلاثة الذين يرون فـيها رمز الأم والعطاء وارتبط كل منـهما بالآخر بالزواج وراحـا ينهلان من نبع السعـادة الأنانية على حساب عدد كبير من الضـحايا ، إذا كنت قد أدنت هذا الاختيار لكثـرة مَنْ تسـاقطوا على جانـبى الطريق إليـه من الضحـايا الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا جـريرة فى أن الحياة كـانت قبل ربع قرن من الزمان قد حـالت بين طرفي القـصة وبين اجتماع شملهم قبل زواج كل منهما من آخر وإنجابه ، فإنى لا أستطيع أن أدين اختيارك العاطفى هذه المـرة إذا اخترت تصحيح خطأ مـازال فى الإمكان تصـحـيحـه بغـيـر أن يدفع ثمن تداركـه ضحايا كثيرون من الأبناء وشـركاء الحياة . فأنت يا صديقى لم تُبن بعد بخطيـبتك الحاليـة حتى لو كنت قد عقـدت قرانك عليـهـا ، وفتـاتك كـذلك لم تتـزوج ممن أرغمـهـا والدها على الارتباط به ولم تتأبد روابطها مـعه بالإنجاب حتى الآن ومن صالح كل الأطراف فى هذه القصة ألا تـتفاقم الأخطاء ويصبح لها ضحايا حائرون فى المدى القـريب كما أنه ليس من الحكمة تعـذيب النفس والغـيـر بأن ترتبط بمَنْ ينشـغل عنهـا فكرك وقلبك بغـيـرها ولا هو مـن صـالح خطيب فـتـاتك الأولى أن تواصل طريق الارتباط بـه وقلبها يهـفو إلى غيـره ويرجوه ، فكل بناء يقام على غير أساس متين يتعرض للانهيار عند أول عاصفة ، ولا داعى لتكرار الأخطاء البـشرية.. وامتحان النفس والغير بمحنة مـعايشة الإنسان لمن لا يحبـه ، فإذا التقى ذات يوم بعـيـد أو قريب بمن حـالت دونه الحـيـاة تجدد الشـوق القـديم واضطربت الحـيـاة العـائليـة .. وصـدق عليـه قـول الشاعر :

ذو الشوق القديم وإن تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

وإذا كان فى مقدور المرء أن يحيا الحياة الطبيعية مع مَنْ يحب ويقصر عليه طرفه وحبه وفكره ويفرغ قلبه ممن عداه، فما معنى أن يعذب المرء النفس والغير بالارتباط بهم ومكابدة العيش معهم على غير رغبة حقيقية منه .. وفي ذلك ما فيه من الظلم لهؤلاء الغير قبل أن يكون للنفس ذاتها ؟

إننى لا أنصحك أبداً بقبول « تضحية » خطيبتك لك باستمرارها فى حياتك مع ارتباطك بفتاتك الأولى إذا كانت فى ذلك سعادتك .. فالحق أننى لم أفهم هذه « الواقعية » التى تتحدث عنها حين تروى عن خطيبتك أنها تحثك على الاتصال بفتاتك وتقبل بأن تكون زوجة ثانية لك معها ، ولا أرى فيها أية واقعية حقيقية ، وإنما أرى فيها انكساراً إنسانياً لا يليق بك أن ترضاه لها وأرى فيها عجزاً من جانبها عن تغيير ما تكرهه لنفسها كأية فتاة أخرى ، ومخالفة لطبائع النفس البشرية لن تصمد طويلاً للتظاهر بالقبول بها راغمة طلباً لإتمام الزواج منك ، ثم لا يمضى وقت طويل إلا وتتفجر المشاكل ويزداد الموقف تعقيداً ، وخاصة أن فتاتك الأولى لن تقبل ومهما كان حبها لك حقيقياً وصادقاً أن تتزوج بك وأنت زوج لأخرى لم تُبن بها بعد ولم تنجب منها وليس هناك ما يعوقك عن الاعتذار لها عن فصم الرابطة التى تجمعك بها والتفرغ بكليتك لـمَنْ ترغبها .. إن الإنسان حين تشتد رغبته فى الأشياء قد تضعف حيلته أمامها وقد يُبدى من المرونة والاستعداد للتضحية المهينة لنيلها ما لم يتوقعه هو من نفسه.. لكن النفس سرعان ما تتمرد على ضعفها السابق إذا تعلق الأمر بالعواطف ويندم على سابق قبوله لما لم يكن يرضاه لنفسه لولا أن كان فى الموقف الأضعف ويطلب بشدة

ما يريده لنفســه .. فتبدأ الصـراعات وتتصاعد المشــاكل .. فما حــاجتك أنت وحــاجة خطيـبتـك الحاليـة إلى كل هذا العناء ، ولماذا تقفـز أنت بإرادتك هذه المرة إلى بؤرة دوامة جـديدة قد تدور بك سنوات ثمينة من العـمر ويكون لها ضحـايا آخرون من الأبناء الحائرين فى المستقبل ؟

إن فى مـقـدورك الآن أن تتـعلق بطوق نجـاة يخـرج بك وبخطيبتك من دوائر الدوامـة إلى شاطىء الأمان .. وذلك بأن ترفض شاكراً تضحيتهـا المرورة هذه لك وتعتذر لها عن عدم الاستمرار فى الارتباط بهـا وقلبك يهفو إلى غيرها لأن فى ذلك ظلماً بيناً لـها وتعوضهـا بكرم وسخـاء عن الأضرار المعنوية والنفسـيـة التى ستـتكبدها بانـفصـالك عنها ، ثم تسـتكشف استعـداد فتاتك الأولى للارتباط بـك بعد الاعتذار لخطيـبها .. وتستكملان القصة الناقصة بأقل الخسائر الإنسانية الممكنة .. فـإذا كان فى هذا الحـل بعض الإجحـاف بخطيـبتك الحاليـة وبخطيب فــتـاتك الأولى وكل منهـمـا لا ذنب له بـالفـعل فى انشغال فكر شريكه بغيره ، فإن عزاءهما عما يتعرضان له من إجحـاف بهما هو أن الحل المؤلم الآن سـوف يجنب كلاً منهـما فى المستقبل القـريب التعاسة الحقيقيـة وتجرع كأس العيش مع شريك لم يكن يتمناه لنفسه ومضى فى الارتباط به وكأنه ينفذ حكماً قـدرياً عليه لا يملك له دفعاً ، ولاشك أن كـلاً منهما يستــحق من الحياة ما هو أفـضل كثيراً من ذلك ويسـتـحق أن يرتبط بمَنْ يزهو به .. ويراه أمله الكبـيـر فى الحيـاة ولسوف تعوضه الأقدار عمـا يخسره الآن نفسياً ومعنوياً خيـراً عميماً بإذن الله .

الماء الفاتر!

أكتب إليك بعد أن ضاقت بى الدنيا وسدت أمامى جميع السبل، فأنا سيدة فى السابعة والأربعين من عمرى تزوجت منذ ٢٢ عاماً من شاب تقدم إلى خطبتى ، ولقى قبولاً من أسرتى .. ودعيته للتعرف به فى صالون البيت ، فرأيته إنساناً هادئاً ومهذباً ووسيماً.. فوقع منى موقع القبول على الفور ، وأعلنت لأبى ترحيبى به وتمت الخطبة والسعادة تملأ جوانحى .. وبدأت الاتصالات التليفونية اليومية بيننا كل مساء وبدأ يزورنى كثيراً واقتربت منه وتفجرت ينابيع الحب المكتوم فى قلبى تجاهه .. أما هو فقد كان هادىء المشاعر غالباً بالنسبة لى ، وشكوت لأمى من ذلك، فطالبتنى بالصبر عليه حتى تجمع العشرة بيننا ويتفجر ينبوع الحب فى قلبه تجاهى ، لأن ظروفه كشاب تختلف عن ظروفى .. فهو يكبرنى بخمس سنوات ، ولابد أنه قد خاض أكثر من تجربة عاطفية قبل أن يرتبط بى ، أما أنا فهو أول إنسان فى حياتى ، ولهذا تدفقت عليه مشاعرى بقوة ، وأقنعت نفسى بصحة رأى أمى ، وساعدنى على ذلك أنى لم أجد منه إلا كل رقة واحترام فى التعامل معى ، أما مسألة التحفظ فى المشاعر هذه ، فلا دليل عليها سوى ما استشعره أنا فى أعماقى من أنه لا يحمل لى حباً

ملتهباً يكافىء حبى له .. وكنت قد تخرجت فى كليتى وعملت بوظيفة مناسبة .. وسألنى خطيبى عن خطتى بالنسبة للمستقبل بعد الزواج ، فصارحته بأننى أنوى الاستمرار فى العمل بضع سنوات إلى أن أشعر بحاجة أبنائى إلىّ، فأتفرغ للبيت ، وسعد كثيراً بهذا التفكير ، وتزوجنا وسط فرحة الأهل وسعادتى الغامرة وكرست حياتى من اليوم الأولى للعناية ببيتى وزوجى وتوفير الجو الملائم له للتقدم فى عمله ، حيث كان يعمل بوظيفة تعده بمستقبل كبير وواجهنا فى بداية حياتنا الصعوبات المادية المألوفة.. فكنت أساهم بمرتبى كله فى البيت إلى جانب ما يعطيه لى أبى من مساعدات سرية .

وبناء على طلب زوجى أجلنا الإنجاب ثلاثة أعوام .. لكى تتوافر لدينا الظروف المناسبة قبل مجيء الأطفال ، بالرغم من اعتراض أمى ولهفة أبى على أن يرى حفيداً له منى ، ثم أبديت رغبتى لزوجى فى الإنجاب بعد أن بلغت الثامنة والعشرين ، فلم يعترض ولم يتحمس وشغلت عن فتوره للإنجاب بتطلعى لأن أنجب منه أطفالاً .. وأنجبت طفلتى .. وبعد عامين آخرين أنجبت طفلى ، وكنت أرغب فى إنجاب طفل ثالث لأنى أحب الأطفال ونشأت بين خمسة من الإخوة ، لكن زوجى أقنعنى بالاكتفاء بما رزقنا به الله.. والاهتمام بالطفلين وحصلت على إجازة من عملى لرعاية الطفلين، وفى هذه الفترة أعير زوجى للعمل بإحدى المنظمات بالخارج ورغبت فى مرافقته وإدخال الطفلين المدارس فى مقر عمله .. لكنه أقنعنى بأن أبقى فى مصر على أن ألحق به لقضاء شهور الصيف معه .. وتمتعت مع زوجى بأجمل فترات حياتنا ، واستمرت إعارته أربعة أعوام .. ورجع إلىّ واستقرت بنا الحياة فى مصر .. وتقدم

زوجى فى عـمله ، وتحسنت أحـوالنا المادية كثـيراً .. وانتـقلنا من الشقـة العادية التى بدأنا حيـاتنا فيهـا إلى شقة جـميلة بضاحـية أجمل وواصل الابنان تعليمهما حتى بلغا المرحلة الثانوية .. وطوال هذه السنوات لم تحدث بينى وبـين زوجى خلافات كبـيرة .. ولم تشهد حياتنا سوى بعض الاحتكاكات البسيطة بحكم طبيعة الحياة المشتـركة ومطالب الأبـناء ومتاعب تـربيتهم .. وفـى كل الأحوال، فلقـد حرصت دائماً عـلى ألا تخرج خـلافاتنا عن دائرة الاحـترام المتبادل بينى وبين زوجى ، كما كنت غـالباً مَنْ يبدأ بالاقتراب منه ومصالحته لأننى لا أطيق خصامه ولا جفاءه لى . وفى المقابل فقد شهـدت حيـاتنا مناسـبات سعـيدة كـثيـرة مثل نجـاح الأبناء فى الشهادات العامة .. وترقية زوجى إلى مركز أكبر ، واحتفالات عيد زواجنا التى بلغت ذروتهـا قبل عـامين فى ذكـرى مرور عـشرين سنة على الزواج ، حيث غمرنى زوجى بالهدايا وبالكلمات الجميلة التى هى أثمن من الهـدايا أمـام أولادى وأثنى علىّ كثـيراً ، وقـال لابنتى إنه يريد منهـا أن تكون مثل أمهـا فى كل شـىء ودعا لابنه بأن تهبه الحياة زوجة مثلى تحفظ زوجها وبيتها وأبناءها ، فبكيت من الفرح والسـعادة .. ودعوت الله أن يحـفظ لى زوجى وأسرتى وسعادتى ..

وكنت حـين احتلفت بعـيد زواجى العـشرين فى إجـازة بدون مرتب من عملى لأتفرغ للعناية بابنى وهو يستعد لامتحان الثانوية العامـة .. وكلل الله جهودى وجـهود ابنى بالنجـاح ودخوله نفس الكليـة التى سبـقتـه إليهـا أختـه .. وسعـدنا بذلك كل السـعادة ، واحـتلفنا بنجاحـه احـتفـالاً بهيـجاً .. لـم يمض على بداية عامـه الجامعى الأول سوى عدة أسابيع ، حتى تكدرت حياتى بملاحظتى

على زوجى ابتعاده عنى .. وانطواءه على نفسه .. وعدم استجابته لأى محـاولة من جانبى للاقتـراب منه أو معرفـة أسباب انشـغال فكره ، وتصورت أن زوجى ربما يكون يعانى أزمة منتصف العمر التى يمر بها بعض الرجال وخاصة أنه قد تجاوز الخمسين بعام ، وبدأ يشعـر بانسحاب الشبـاب وظهور الشعـر الأبيض بكثرة فى رأسه ، وحاولت إشـعاره بأن هذا الشعر الأبيض قـد زاده وسامة وجمالاً فى نظرى ، وهى حـقيقة لكنه لم يستـجب لأية محاولة .. وأمعـن فى البعـد والصمت والانطواء .. وكـثرت أسـفار العـمل منفرداً دون أن يدعونى لمصاحبته كما كان يفعل من قبل

إلى أن فوجئت به ذات يوم يقول لى فى هدوء قاتل إنه يريد أن يعترف لى بشىء خطير ويعرف مـا أريد بعد سماعه .. أما الشىء الخطير الذى فـاجأنى به زوجى بعـد أكثر من عـشرين عـاماً من الزواج المستـقر الناجح الخالى من المشـاكل والصراعات فـهو أنه غير سعيد معى .. ولا يريد الاستـمرار فى حياتنا معاً .. ويخيرنى بين أن يهجر البـيت دون طلاق ويقيم وحيداً فى الشـقة التى كان قـد اشتـراها لتكون لابنه فى المسـتقـبل ، على أن يبدأ فى شـراء أخـرى له بالتـقسـيط .. وبين أن يطلقنى فـى هدوء ويعطينى كل حقوقى الشرعيـة ، وأظل فى بيتى وبين أولادى إلى نهاية العمر ، ونظل صديقين على البـعد يحترم كل منا الآخر ويتعـاون معه فى رعـاية الأبنـاء ، وإذا بدا لى أن أتزوج غـيـره فى أية مــرحلة من العمـر، فلن يغيـر ذلك من طبيـعة العلاقـة بيننا، بل إنه يرحب إذا اقتـضت الضرورة بزواجى فى نفس مسكن الزوجـية وبين ولدى بشرط أن أحسن الاختيار !

ولن أروى لك مـا حـدث لى حـين سـمعـت ذلك ولن أطيل فى

التفاصيل المحزنة التى تلت هذه « المناقشة الهادئة » كما يسميها ، وإنما سأقول لك فقط إنه قد خيّل إلىّ أنى أشاهد فيلماً من أفلام السينما يجرى أمامى ، ولم أكن لأصدق وقائعه لولا أننى كنت طرفاً حيّاً فيه .

فلقد فشلت كل المحاولات والدموع والبكاء والاستجداء والتوسل من جانبى ومن جانب ابنى وابنتى مع زوجى فى تغيير موقفه ، وفشلت كل الوساطات العائلية فى إرجاعه عن فكره وهجر البيت فى يوم حزين وانتقل لشقته الجديدة التى أثثها على عجل ، واستفزتنى كرامتى بعد أن أعيتنى معه الحيل فقلت له إننى أفضل الطلاق وكأنما كان ينتظر منى هذه الإشارة، فأسرع بطلاقى وأرسل إلىّ مع شقيقه الأكبر مؤخر الصداق ونفقة المتعة ونفقة العدة وتعويضاً مالياً زائداً ، وأكد لى أنه سوف يستمر فى إرساله المبلغ الشهرى الذى كان يدفعه لى كمصروف للبيت إلى ما لا نهاية ، وقدم لى شقيق زوجى مظروفاً بهذه المبالغ وعيناه تدمعان أسفاً وحزناً على انهيار هذه الأسرة التى طالما ضُرب بها المثل فى الوفاق والاستقرار .

وقلت لشقيق زوجى : ماذا تساوى النقود وقد فقدت أمانى وسعادتى واستقرار ابنى وابتهاجهما بالحياة ؟ وأحنى الرجل رأسه ليخفى دمعته وودعنى وهو يدعو لى بالصبر وتعاطفت معى شقيقات زوجى وأزواجهن وأنكروا جميعاً تصرفه وغاضبوه وحرصوا على زيارتى والسؤال عنى كل يوم ودعوتى إلى بيوتهم، وقبل أن أفيق من ذهولى ، فوجئت بالحوادث تتوالى سريعة بلا رحمة ، واكتشفت سر هذا الانقلاب الخطير فى شخصية زوجى ، حين فوجئت به يتزوج من سيدة طلقت من

زوجها قبل شهور قليلة ولها ثلاثة أبناء أصغرهم فى السابعة عشرة من عمره ! وعرفت أن زوجى كان يحب هذه السيدة ، وهى فتاة فى سن التاسعة عشرة وظل يحبها خمس سنوات ، وفشل فى الزواج منها لأسباب مادية ، وتزوجت مَنْ كان قادراً وقتها على تكاليف الزواج وإعداد شقة فى حى المهندسين ولديه سيارة ومال كثير ، وأنجبت منه وعاشت معه ٢٤ عاماً ، إلى أن التقت بزوجى خلال العمل بالمصادفة .. وشكت له من تعاستها الزوجية وندمها على إضاعته من يديها، فتجدد الحنين واستيقظت المشاعر النائمة كما يقول .. وظلا على علاقة عاطفية بالتليفون واللقاءات الخاطفة فى العمل لمدة شهور ، واتفقا على استكمال القصة القديمة التى لم تتم .. وطلبت هى الطلاق من زوجها ، وأحالت حياته إلى جحيم إلى أن رضخ بعد عناد كبير وتركت أبناءها الثلاثة وانتظرت أن يطلق زوجى زوجته ويتوج قصتهما بالزواج، فلم يخب رجاءها ! وتزوجا وانتقلا إلى عش الحب الذى راح ضحيته رجل وامرأة وخمسة من الأبناء الحيارى .. وهما الآن سعيدان بحياتهما راضيان عنها ولا يؤرقهما لحظة واحدة عذاب الضمير بما فعلا بشركاء الحياة والأبناء وكل منهما يقول إنه قد أدى رسالته مع أبنائه ، ومن حقه أن يسعد بما بقى له من العمر إلى جوار مَنْ يحب ، فإذا قيل لزوجى إن ابنيه مازالا فى مرحلة الدراسة الجامعية يقول إنهما قد اجتازا المرحلة الصعبة وهى الثانوية العامة . وسوف يتخرجان ذات يوم ولن يتخلى عنهما ! وإذا قيل له إن زوجته تحبه ولم تسىء إليه ولم تكن حياته معها تعيسة ، أجاب ـ سامحه الله ـ بأن حياته معى كانت هادئة لكنها لم تكن سعيدة لأنه لم تكن بيننا سوى العشرة والاحترام وهى

شبيهـة بالماء الفاتر الذى لا يروى العطشان .. أما حيـاته الحالية، فهـى مشـحونة بالعـواطف الحارة ! فـأى منطق هذا يا سيـدى ؟ وما ذنبى أنا فى قـصة الحب القديمة الـتى لم تكتمل أو فى تخلى بطلتها عنه بسبب الإمكانات المادية وندمها فـيما بعد على إضاعته من يديهـا .. وإذا لم يظهر هذا الندم وهو يتـعثـر فى بداية حيـاته العمليـة وتفجر فجـأة بغير مـقدمات بعد أن أصـبح زوجى رجلاً مرمـوقاً فى مـجاله ولديه إمكانات مـادية جيدة وسـيارة فـاخرة وشقة إضافـية ودخله كبير وحتى لو صدقت هذه المشـاعر .. فما ذنبى أنا فى ذلك ولماذا يحترق قلبى وأنا أقترب من الخمسين بغدر شريك الحياة والحـرمان من السعادة والاستقـرار ؟ . لقد قال لى زوجى خلال مناقشتنا الهـادئة تلك وفى برود قاتل إننى أستطيع أن أبدأ حياتى من جديد مع غيره .. فسامحه الله على ما لا يفهمه.. إذ كيف يمكن أن أحب رجلاً آخر بعـد ٢٣ عاماً من الحب الخالص لإنسان وهبته كل مشاعـرى وحياتى ؟.. وكيف أستطيع أن أدخل على ابنتى الشابة وابنى الشـاب رجلاً آخر غير أبيهـما يختلى بى فى غـرفة النوم وهـما فى الجـوار يرقـبان ويفـهـمان ويتـألمان ، وما هذا « الحب » اللعـين يا سيدى الـذى يبرر به زوجى كل هذه القـسوة عـلى مَنْ لم تكن ترى الدنيـا إلا من زاويتـه وعلى الأبناء الذين كانوا يرون فيه مثلهم الأعلى ؟

لقد مررت بفترة عـصيبة انهرت فيها صحـياً ونفسياً .. وبدأت أفكر فى الرجوع للعـمل وقطع إجازتى لعلى أجد مـا يشغلنى عن التفكيـر المستمر لمدة ٢٤ سـاعة .. فى طعنة زوجى ووالد ابنىّ لى وأنا فى هذه المرحلة من العمر .. فبمـاذا تنصحنى يا سيدى وماذا تقول لى وله ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض الناس يقيسون فيمـا يبدو عمق « سعادتهم » بحجم اتســـاع دائرة ضحـــايا هذه الســـعادة من الأبرياء الذين داســوا على أشلائهـم للوصول إليهـا . وبهذا المقيـاس الفاسـد ، فإنه يحق لزوجك السابق وشريكته فى هذه « السعادة » أن يفخرا بعدد الضحايا الذين سقطوا على جانبى الطريق خلال سعيهم لنيلها . أما أصحاب القلوب الحكيمـة من البشر ، فهم لا تصفو لهم السعادة إذا شـقى باختيارهم لهـا أعزاؤهم حتى لو شكوا بالفعل من بعض جوانب النقص فى حياتهم .

والحـياة قـد تحـول أحيـاناً بين الإنســان وبين بعض مـا يرجـوه لنفســـه وتجود علـيه فى نفس الوقت بما يكفى لأن يعوضه عما يفتقده فى حياته أو يراه من وجوه النقص فيها .

ولقد تتـاح له فيما بعـد الفرصة لتصـحيح ما يعتـبره من أخطاء الحيـاة فى حقه ، فـيتـوقف أمام هذا الاختـيار ويوازن بين ما سـوف يجنيه من عـوائد هذا التصـحيح المتـأخر وبين ما سـوف يتكبده أعـزاؤه من ثمن فادح له وما سـيدفـعه هو نفســه من اعتـباره لدى الأبناء والأهـل والمجتمع المحـيط به ، فيـفضل إذا كان ممَنْ لا يسـعدون بشقاء الأعـزاء والآخرين ألا يعدل بحسن اختيار الله له شيئاً ، ويتجاوز عما لا يرضيه من حيـاته إلى مـا يرضيـه منها ، فـيشكر ربه عليـه ويسلم بأنه «وأمرّ من بعض الداء الدواء » كما قال أميـر الشعراء ، فيعزف عن خيـار التصحـيح إذا كانت أضراره الإنـسانية والعـائلية والاجتماعية أكبر بكثـير من أضرار استمرار الحال على ما هو عليه والرضـا به . وكذلك يفـعل الفضلاء ومَـنْ يستشـعرون

مسئوليتهم العائلية عمن يعتمدون عليهم فى حياتهم .. ومسئوليتهم الإنسانية عن إعلاء المثل العليا فى الحياة ، أما اختيار « أنا وبعدى الطوفان » فهو اختيار ذوى الأثرة والأنانية والإحساس المتضخم بالذات على حساب الغير ، وهؤلاء لا يجدى معهم الحديث الآن على الأقل وهم فى ذروة النشوة الموهومة « بانتصار الحب » على الأعراف والتقاليد والقيم العائلية والاجتماعية وكافة القيود والأغلال الاجتماعية وإنما قد يجدى الحديث إليهم بعد حين ، عندما يخمد الفوران العاطفى الذى يذكيه الآن الإحساس بالتحدى للصعاب والعقبات العائلية والاجتماعية.. وعندها قد يكتشف أطراف مثل هذا الاختيار أن ما خسروه من خسائر إنسانية وعائلية واجتماعية خلال سعيهم لنيل سعادتهم الخاصة بغير اعتبار سوى لمشاعرهم ورغباتهم وحدها قد يكون أكبر بكثير من حجم ما نعموا به بالفعل من سعادة .. حقيقية كانت أم زائفة ، فصبراً يا سيدتى ، فإن خداع الأبصار لا يدوم إلى الأبد ولابد من يوم يراجع فيه كل إنسان كتابه مع الحياة ويؤرقه ضميره بما جنى على الآخرين بغير ذنب ارتكبوه سوى أن أقدارهم قد وضعتهم على غير إرادة منهم فى طريق سعيه لسعادته .. وقد يتدارك ما يستطيع تداركه من أخطائه وعثراته قبل أن يفوت أوان الإصلاح والاعتذار . ولقد شعرت بعمق فجيعتك فيمن أخلصت له الحب طوال الرحلة، فلم يبادلك للأسف بعض هذا الحب ، وضحى بك عند أول مفترق للطرق كأنما قد كانت حياتك معه ومشاعرك تجاهه ضياعاً من الضياع . ولقد ذكرنى موقفك الحسير وشقيقه الأكبر يقدم

إليك « فدية » الغدر والخيانة بموقف إحدى زوجات الإمام الحسن بن على حين ولى الخلافة بعد مقتل أبيه وأخطأت الزوجة، فهنأته بها قائلة : لتَهنئك الخلافة يا أمير المؤمنين، فقال لها : أيقتَل علىٌّ وتظهرين الشماتة ؟.. أذهبى فأنت طالق ثلاثاً . وبقيت فى بيته حتى انتهت عدتها وبعث إليها بعشرة آلاف درهم كمتعة ومؤخر صداق ، فقالت المرأة لمن حمل إليها المال وهى باكية :

– متاع قليل من حبيب مفارق !

وصدقت فيما قالت، فكل شىء فى الحياة حقاً « متاع قليل» إذا افتقد الإنسان راحة القلب وسكونه إلى جوار مَنْ يحب .

لكن ماذا نقول نحن فيمن لا يرون إلا أنفسهم ورغباتهم ومطالبهم من الحياة ولا يعنيهم فى كثير أو قليل ما قد يقدمونه من قرابين بشرية على هيكل الفوز ببلوغ غاياتهم ؟

قد نقول ما قاله أحد الحكماء فى موقف مشابه : لقد أحببت الإخلاص وكرهت الغدر وآمنت بالخير والحق والعدل والجمال ، والمثل العليا . وكان ذلك لنفسى قبل أن يكون لغيرى .. فإن كافأنى الغيرَ على ما حملت لهم من مشاعر طيبة بالوفاء لى فبها ونعمت ، وإن جحد البعض عطائى ومشاعرى وإخلاصى ، فلقد استمتعت بممارسة إحساس العطاء والحب والوفاء والنبل .. ولى ما أحسست به .. وعليهم عاقبة ما تنكروا له من عطائى السابق لهم ، وفى ذلك بعض العزاء !

نعم يا سيدتى فى ذلك بعض العزاء .. فتماسكى دفاعاً عن نفسك وصحتك ودفعاً للهم والحزن والمرض ، واستجمعى

قـواك لكى تواصلى رحلة الحب والعـطاء لأبنائك وتسـتكملى معـهم رسالتك وتسـتمتـعى بجنى ثمار عطائك النـبيل لهم .. ولا بأس بفكـرة العـودة للعـمـل لكى يشـغل بعـض أوقـاتك ويخرجك من دائرة الانحصار داخل مأسـاتك الشخصية .. إلى العالم الأوسـع بآفاقه واهتـمامـاته وشواغله فالـفراغ من كل عـمل يشـغل الإنسـان عن همـومـه هو أعدى أعـداء المهـمـوم بأمره .. وأنشط أعوان المرض عليه ..

فـارجعى إلى عـملك ولو بصـفة مـؤقـتة وثقى فى نفسك وجدارتك بكل خيـر وجميل فى الحيـاة ، وتأكدى دائماً من أنه « إنما يوفى الصـابرون أجـرهم بغيـر حـساب » . صـدق الله العظيم

اللوحة المثالية

ترددت طويلاً قبل أن أكتب إليك رسالتى هذه ، فأنا سيدة أشغل مركزاً قيادياً مرموقاً ، وقد نشأت فى أسرة ريفية طيبة وكان أبى رجلاً طيباً مخلصاً لأسرته وبيته كل الإخلاص ، وأمى أماً رائعة مثالية وأخى وأختى لا نعرف كلنا سوى الحب والترابط والتعاطف ، وحين وصلت إلى السنة النهائية فى كليتى تقدم إلىّ شاب جامعى للزواج منى ورحب به والدى وشاركته والدتى الترحيب رحمهما الله ، وكان أول رجل يدخل حياتى، فتملكنى حبه وشعرت بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علىّ به ، وتزوجنا وعشت معه اسعد أيام الحياة ومضت بنا الأيام على خير ما يرام ورزقنا بولدين وبنت ، ورفرف الحب والوئام على حياتنا حتى استحققنا أن نكون بالفعل الأسرة المثالية ، فعلاقتى بزوجى لا توصف من حيث الحب والإخلاص والصراحة المتبادلة بيننا والمشاركة الكاملة بينى وبينه فى كل شىء .. لا مال لى ولا ماله له ، وإنما كل ما يملك زوجى هو لنا معاً وكل ما أملكه كذلك ، حتى حسابى بالبنك معه توكيل منى بالتصرف فيه ، كما أن معى توكيلاً منه بالتصرف فيما يملك ، والأبناء رائعون ومتفوقون .. ومهذبون وقد تقدموا فى الدراسة حتى بلغوا كلياتهم المرموقة

وتخرجوا فيها ، وسعدنا بمناسبات نجاحهم وتخرجهم ، وتعاونت مع زوجى فى افتتاح مكاتب ومشروعات مهنية صغيرة لهم .. واكتملت اللوحة العائلية المثالية بارتباط أبنائنا الثلاثة بزوجات وأزواج من أسر عريقة طيبة .. ولم تشهد حياتنا فى هذا الأمر أى خروج على اللوحة الرائعة ، فلم يرتبط ابن لى بمَنْ هى دونه اجتماعياً وعائلياً ، ونشبت بسبب ذلك مشكلة عائلية فى أسرتنا ، ولا ارتبطت ابنة لى بزوج لا يستحقها وحاربتنا لكى تتزوجه رغماً عنا ـ كما نقرأ أحياناً فى بريد الجمعة ـ وإنما مضى كل شىء فى سلام ووئام .. وانتقل الأبناء إلى أعشاشهم الصغيرة وعرفنا متعاً عائلية جديدة حين نزورهم فى بيوتهم أو يزوروننا فى بيتنا .. ولم يلبث الأحفاد أن جاءوا ليزيدوا حياتنا ضياءً وبهجة حتى خشيت على حياتى من الحسد ، ودعوت الله دائماً أن يحفظ علينا سعادتنا وسلامنا العائلى .

ثم اقترب زوجى من سن المعاش وبدت عليه علامات انشغال الخاطر والتفكير ، وأحسست بما يدور فى نفسه وهو يقترب من سن التقاعد من العمل ، وأنا ما زلت أعمل ، واخرج إلى عملى كل يوم ، وفكرت فى الأمر طويلاً ثم عرضت عليه أن أنهى حياتى العملية وأخرج للمعاش المبكر ، لكى أشاركه أوقات فراغه وخاصة أنه لم يكن يفصل بينى وبين سن الستين سوى خمس سنوات ، وقلت له إن حياتنا قد اكتملت ، وأننا أدينا رسالتنا مع أبنائنا على خير وجه .. فلماذا لا أستقيل وأتفرغ له ونستمتع معاً بحياتنا وأوقات الفراغ الطويلة .. وباستقبال أحفادنا الصغار لحين عودة أمهاتهم الشابات من العمل ، ولكنه فضل لى الاستمرار فى عملى حتى أصل إلى سن المعاش الطبيعية ، واستجبت لرغبته ، وبلغ

زوجى سن المعاش ، واحتفلنا بتحرره من أسر الوظيفة ، وسافرنا معاً للأراضى الحجازية لأداء العمرة ، وشكرنا الله سبحانه وتعالى كثيراً أن خرج زوجى إلى المعاش وهو بكامل صحته .

وبدأ زوجى بعد المعاش يجلس وحيداً فى البيت فى الصباح وأخرج أنا للعمل ، وعرف التدخين بانتظام لأول مرة فى حياته وعاتبته فى ذلك خوفاً على صحته ، فأجابنى بأنها مجرد تسلية لشغل الفراغ وتعمدت أن أكثر من الخروج معه عقب عودتى من العمل بالرغم من إرهاقى وتعبى ، وأكثرنا من زيارة أبنائنا فى بيوتهم لكيلا يشعر بالملل والضيق بالفراغ .

ومنذ بضعة شهور نسيت فى البيت عقب خروجى منه تقريراً كتبته عن شأن من شئون العمل ، واكتشفت ذلك عند وصولى لمكتبى ، فاستدعيت عاملة من العاملات معى وأرسلتها للبيت لإحضاره ، وبعد ذلك لاحظت أكثر من مرة اختفاء أشياء صغيرة من حقيبة يدى بعد وصولى للعمل كمفاتيح المكتب وغيرها ، فكنت أرسل هذه العاملة لإحضاره من البيت لأنها تعرف طريقه .

وذات يوم شعرت بإجهاد شديد وأنا فى العمل وتعرضت لنوبة من الإغماء ، وانزعج زملائى وتعاونوا على إعادتى للبيت بسيارة أحدهم ، ونزلت أمام سكنى وصعدت إليه وفتحت الباب ودخلت حجرتى ، فإذا بى أجد زوجى الرجل المثالى المحترم جد الأحفاد الصغار يجلس فى الغرفة وتلك العاملة التى سبق أن أرسلتها إلى البيت عدة مرات ، تتحرك فى المكان على راحتها وهى ترتدى الملابس المنزلية التى تخصنى .. ولست أدرى ماذا فعلت أو قلت أو قال زوجى .. لكنى أذكر فقط أننى سمعت تلك الحقيرة

تقول لى فى ثبـات إن البيه زوجـها هى الأخرى ، كـما هو زوجى حضرتى أنا الست المديرة !

واسـتـرددت وعيى بعـد ذلك، فـوجـدتنى ممددة فى فـراشى وحولى ابنى ومـعه طبيب من معـارفه ، ولم أنطق بشىء ولم أقل شيئاً .. إلا أننى فقط انفـعلت وهجت مرة أخـرى حين دخل علىّ زوجى وأغـمى علىّ مـرة ثانيـة ، وسأضـرب صـفحـاً عن ذكـر التفاصيل التى تلت هذه الفاجـعة .. وسأقول لك إننى حصلت على إجـازة من عملى لمـدة شهـر قضـيت بعـضه فـى بيت ابنتى التى حاولت معى طويلاً أن تعرف سر ما حدث لى ، فلم أبح لها به .

ورجعت إلى بيتى بعد هذه الفترة وطلبت من زوجى تفسيراً لما فعل، فلم يجد ما يقوله لى سوى أنه « أمر الله » وأنه لم ولن يكون فى يوم من الأيام عاصياً لربه ، فطلبت منه أن يطلقها ويعطيها كل ما نملك مقابل طى هذه الصفحـة قبل أن يعرف بها الأبناء ، وتهتز لديهم صـورة الأب المثالى والجـد الحنون لأطفالهم ، فـرفض هذا الحل . أما « الهـانم » التى ارتبط بها زوجى وعـرضنى من أجلها لهذه المحنة فى هذه المرحلة من عـمرى ، فقد علمت من العـمل أنها استقالت واختفت منه .

إننى أخشى على أولادى وأحـفادى حين يعلمون بهـذه القصة الشـائنة عن أبيهم وجـدهم ، ولا أدرى كيف أواجـه ما تبـقى من حياتى بعدها .. وزوجى ما زال مـصراً على موقفه بالرغم من كل مـا حدث ، فـمـاذا أفعل يا سـيـدى حرصـاً على سـمعـة أولادى وأوضاعهم العائلية فى أسـر أصهارهم .. وهل يكون انتحارى هو الحل الملائم لمثل هذه الكارثة علمـاً بأن خوفى من ربـى هو وحده الذى يمنعنى الآن من الإقدام عليه ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الانتحـار ليس حلاً لأية مشكـلة من مشاكل الحـياة ، وإنما هو هروب منها وعجز عن مواجهتهـا والصمود أمامها .. فضلاً عن أنه عمل يائس يخرج بصاحـبه من حظيرة الإيمان بربه ، إلى اليأس من روح الله ومن كل شىء فى الحياة .

والواضح يا سـيدتى من سـيـاق قصـتك الغريبـة هذه أن زوجك قد تأثر تأثراً سلبـياً بعدة عوامل تحالـفت كلها ضده ، وأدت به فى الـنهـاية للوقـوع فى هذه المحـنة العـائليـة والاجتمـاعية ، أولهـا هو أنه لم يتفاعل على الوجه الصحـيح مع مـشكلة الفراغ التى واجـهها بعد الإحـالة للمعـاش ، ولم يحسن التعامل مع أزمة انتهاء الدور ، والاعتقاد الخاطىء لدى البعض بتراجع أهمـيتهم فى الحياة ، وعلى المسـتوى العائلى لمجـرد انتهـاء مرحلة العـمل فى حـياتهم وبدء مـرحلة تذوق الحياة على مهل واكتشاف جمال الأشياء والعلاقات الإنسانية التى لم يكن إيقـاع الحياة اللاهث يسمح له من قبل بتوجـيه قدر كاف لاكتشافها والتمتع بها .

وأما ثانى هذه العـوامل ، فهو أنه فـيما أتصـور كان يشكو بعض النقص فى الإشـباع الحسى والعـاطفى فى علاقـته بك بالرغم من مثاليـة الصورة العائلية واكتمـال معالمها ، ذلك أن اكتـمال الصـورة ، وبالرغم من أنه فى حـد ذاته قيـمة كـبرى ونعـمـة جليلة من نـعم الحـيـاة ، إلا أنه لا يُـغنى الزوج أو الزوجة عـما يستـشعره أحـدهما من نقص الإشبـاع العاطفى والحسـى فى علاقتـه بشريك الحـياة ، حـتى لو عوضـه عنه الكثـير والكثـيـر مما حقـقه فى حـيـاته ، وأما ثالث العـوامل

وأخطرها .. فهو توافـر عامل « الإغراء » الذى أتاح لزوجك أن يحيل ما يراوده من أفكار وتمنيـات ساعد وقت الفراغ الطويل على استـسلامـه لها والمغـالاة فى تقدير أهمـيتهـا ، إلى واقع عـملى ، فـبـعض الأشخـاص قـد تراودهم مـثل هذه الأحـلام الوردية لإشباع مـا يشعرون بنقصه فى حـياتهم ، فلا يردهم عن ذلك الإخـلاص لشـريك الحـيـاة أو مـراعاة الاعـتـبـارات العـائلية والاجتماعية التى تكبل حركتهم وإنما يردهم عن ذلك أنهم حين استسلموا لضعـفهم لم يصادفوا فى التوقيت الملائم مَنْ يمكن أن يحيلوا مـعه خواطرهم وأمنيـاتهم الحبيـسة إلى واقع عملى ، ذلك أنه كمـا يحتاج الأمر إلى شـخصين لكى تقع مشاجرة على حد تعبيـر المثل الإنجليزى القديم ، فإنه يحتاج إلى شخـصين أيضـاً لكى تبدأ علاقة ارتبـاط أو زواج . ومن سـوء الحظ أن زوجك قـد صادف ، وهو فى مـرحلة الضـعف المعنوى والتأثر بوهم انتـهاء الدور ، وازدياد الرغبة الحـسية لديه بتأثير الفـراغ من هموم العمل والحيـاة ، هذه القرصانة المستعدة للتلبية والانخراط فى مغامرة « مشروعة » تكفل لها الارتقاء الاجتماعى وتلبية الرغبات الحسية والمعنوية والمادية لديها فى نفس الوقت ، ولو لـم تضعها الأقـدار فى طريقه فى هذا التـوقيت الشـائك بالذات ، لربما كـان قـد تجاوز مـرحلة الضعف النـفسى هذه بسلام ، وتواءم مع المتـغيـرات الجديدة فى حـيـاته وتوصل إلـى الصـيـغـة الملائمـة مـعك لإشـبـاع ما يشكوه من نقص .

إنها حـالة أخرى من حـالات ذهول القلب والعقل والتغاضى عن كل الاعتبـارات العـائلية والاجتماعـية أمام النزوة الطارئة

أو إلحاح الغريزة أو العاطفة العابرة ، وهذا الذهول قد يمتحن به أى إنسان فى أى مرحلة من العمر ، فيضعف أمامه البعض ويعرض النفس والأسرة لمتاعب عائلية ما كان أغناه عنها ويصمد له من الأزواج والزوجات مَنْ رحم ربك واعتصم بدينه وخلقه وإحساسه السليم بمسئولياته العائلية والإنسانية .

ولقد كان الأحرى بزوجك أن يعتصم ، بكل ذلك ويسعى لحل مشكلة علاقته بك ، إذا كان يشكو نقصاً فيها بدلاً من أن يعرض نفسه وزوجته وأبناءه لهذه المحنة الطارئة التى تخدش جلال صورته فى أعين أبنائه وزوجاتهم وأزواجهم وأصهاره .

ولقد روى كاتب قصة « سراب الحب » الأمريكية موقفاً مشابهاً لرجل ناجح وقور وزوج مخلص لزوجته وسعيد معها ، كان دائماً ضد نزوات الأزواج ويستعيذ بربه منها ، ويردد دائماً من العهد القديم الآية الكريمة التى تقول : «وسيبلونك الله بالجنون والعمى وذهول القلب » مستعيذاً بربه من مثل هذا الابتلاء ، إلى أن جاء يوم ووضعت الأقدار فى طريقه امرأة لعوباً ساحرة انهارت حصونه أمامها من الوهلة الأولى ووقع فى هواها .. ونسى التزامه وإخلاصه لزوجته ، وانساق وراء أهواء نفسه معها واعترف لشريكة حياته بأنه « مريض » ولا يملك دفعاً لهذا المرض المفاجىء ، وصبرت عليه زوجته عسى أن يشفى من « مرضه » ويسترد اتزانه ، غير أنه لم يغفر لنفسه بعد أن أفاق من نزواته ما فعل بزوجته ونفسه وصورته المثالية فى أذهان المحيطين

به ، ولم يجـد تكفيـراً لذلك سوى الانـتحـار من فـوق سطح العمارة التى يقيم بها .

ولسنا نطالب زوجك بمثل هذا « الـتكفيـر » المرفوض عـما فـعل بنفســه وزوجتـه وصـورته الجليلة كزوج وأب وجـد ، وإنما نطالبـه فقط بـأن يستـرد نفســه من حـالة ذهول القلب والعـقل هذه التى اسـتولت عليـه فـجأة وهو فى سن الهـدوء والاحتـرام ، وبأن يتوصل مـعك إلى صيـغة ملائـمة لحل كل مشاكله ، وتلبيـة كل احتياجاته العاطفية والنفـسية حتى لو تطلب الأمـر تفـرغك الكامل له واسـتقـالتك من عـملك ، وبأن يسرع باسـترداد صـورته المثاليـة فى أعين الأبناء والأحـفاد والأصـهار وشـريكة الحـياة ، قـبل أن يفلت الزمـام من يديه وتأتيه القرصانة الأخرى بوليد صغير يزيد الأمور تعقيداً ، أو يتسـرب خبـر المحنة إلى الأبناء والأصهار ، ويصـبح عسـيراً إصلاح ما أفسده الاندفاع والتـهور والاستسلام لأهواء النفس بغير خسائر معنوية واجتماعية جسيمة .

فهل يستجيب لنداء العقل قبل فوات الأوان ؟!

وهل تسـتمرين أنـت فى إبقاء الأمر داخـل الدائرة الضيـقة بينكمـا ، إلى أن يسـتـرد زوجك نفـسه ويتـحـرر من أسـر هذه القرصانة بأقل الخـسائر الممكنة ، كما تحـرر من قبل من أسر الوظيفة وأعبائها ؟

سلاح الصمت !

أنا رجل أعمال وزوجتى جامعية وربة بيت حالياً ولدى أبناء وقد كتبت إليك لأننى حائر وأشعر لأول مرة فى حياتى بالعجز أمام مشكلة جوهرية من مشاكل الحياة .. فمنذ عشرين عاماً كنت أنا وزوجتى قد أنجبنا طفلين ، ونغالب ظروفنا المادية الصعبة .. وكانت زوجتى حاملاً فى طفلنا الثالث .. وتستعد للولادة ، فشاءت الأقدار أن أوفق فى هذه الفترة بالذات فى الحصول على فرصة عمل بالخارج ، وزاد من ابتهاجى بها وجود فرصة عمل أخرى ممتازة لزوجتى فى المؤسسة نفسها . ووضعت زوجتى مولودنا الثالث .. وتحدد موعد السفر بعد ١٧ يوماً فقط من الولادة، فاضطررنا لترك المولود الحديث فى رعاية جدته لأمه خوفاً عليه من عدم استقرار أحوالنا فى بداية الغربة ، واصطحبنا طفلينا الآخرين وكانا فى عمرى ٦ و ٤ سنوات وبدأنا تجربة الاغتراب .. واستغرقت فى عملى الجديد ، وكذلك زوجتى .. وفى نهاية عامنا الأول فى الغربة عدنا فى إجازة لمدة شهر ، وحاولنا تعويض الطفل الوليد عن غيابنا عنه بالهدايا الغالية ، وواضبنا على ذلك كل عام ، إلا أننا لاحظنا أنه لا ينسجم معنا على الإطلاق ، وأنه لا يتعلق سوى بجدته والألعاب التى نحضرها له فقط ، واستمر

الحال على هذا النحو ست سنوات ازدادت خلالها الفجوة بيننا وبين هذا الابن الأصغر، فقررنا أن نصطحبه معنا إلى مقر عملنا لكيلا ينسى أبويه ، ولكى يقترب من أخويه .. ونفذنا هذا القرار بالفعل واصطحبناه معنا على كره منه ، ولاحظنا خلال الفترة الأولى من حياته المشتركة معنا فى الغربة هروبه من الجلوس إلينا أو الحديث معنا .. فسرنا ذلك فى البداية بأسباب تتعلق باختلاف الحياة العائلية التى اعتاد عليها .. لكننا لاحظنا أيضاً أنه لا يجالس أخويه ولا يشترك معهما فيما يشترك فيه الأبناء من لهو أو مسامرة أو نشاط .. وأرجعت ذلك أيضاً لاختلاف طبيعته عنهما حيث إنه شديد الحساسية على خلاف أخويه ولأمر ما اعتقدنا أنا وزوجتى أن أفضل أسلوب نتبعه معه هو الحسم ، إيماناً بأنه سوف يجعل منه شخصية قوية، فاتبعنا ذلك الأسلوب ولم نحد عنه ، ومضت السنون والابن الأصغر يزداد عزلة وكآبة وهزالاً لانعدام شهيته للطعام . كما لاحظت أيضاً أن أمه تكثر من إهانته وإحراجه لأتفه الأسباب ، فكنت لا أتدخل لمنعها من ذلك ظناً منى أن فى ذلك ما يحقق مصلحته .. وساعدنى على هذا الظن أنه ظل دائماً الابن المهذب شديد الحياء والذكى المتفوق دراسياً ، الذى لا يهتم بالمال نهائياً .

وبلغ ابنى عامه السابع عشر وهو يزداد عزلة وكآبة . وفى هذه المرحلة انتهى عملنا فى الغربة ، فرجعنا إلى بلدنا ومعنا من المال ما لم نكن نحلم بجمع نصفه ، وأقمنا فى مدينة كبرى من مدن بلادنا ، والتحق الابن الأصغر بكلية مرموقة على غير إرادته، حيث كان حلم حياته أن يدرس الهندسة لحبه للرياضيات والعلوم الاليكترونية ، لكنه وبضغط شديد من والدته قبل الالتحاق بتلك

الكلية المرموقة بالرغم من كراهيته الشديدة للدراسة فيها . وكانت النتيجة أن رسب فى عامـه الأول بها ، وهو الطالب المتفوق فى كل مراحله الدراسـية السـابقة ، وكان رسـوبه قاسـياً عليـه لكن أمه لم تتـرفق به على الرغم من ذلـك ، وأذاقتـه كل ألوان التـجـريح والإهانة ، وكعادته بعد كل مواجهة بيـنه وبينها ، فقد دخل غرفته واستـسلم للبكاء يومين كاملين امـتنع خلالهمـا عن تناول الطعام وقمنا بعـلاجه من الضعف العـام الذى صابه .. وبعد شـفائه منه اتبع معنا أسلوب الصمت التام إلا للضرورة القصوى ، فلا حديث مـعى أو مع والدته أو أخـويه إلا للضـرورة التى لا مفـر منهـا .. ولا مسامـرة بيننا وبينه .. ولا شىء سوى إجابات مقتـضبة على أسـئلتنا له . وواصـل بعـد ذلك تعليـمـه تحت ضـغط أمـه وهى المسئولة عن مـتابعة تعليم الأبناء ، ومضى العـام تلو العام ، وهو ينجح بالكاد فى نهـاية كل عام دراسى وفى كل مـرة تظهر فيـها نتيجتـه تقوم أمه بإهانته وإحراجه ، إلى أن جـاءت السنة النهائية هذا العام وظهرت نتيجـة الفصل الدراسى الأول منها قبل أسابيع وكانت كالعادة سيئـة ، فبدأت والدته فى سيل الإهانات والتجريح الموجه له .. فـإذا بالابن الصامت المنكسـر ينفجـر لأول مرة وهو الذى لا يعلو صوته على أحـد حتى مع صفـعات والدته له وإذا به يصـيح فى وجه أمـه بصـوت كالرعـد : كفـاكم ظلمـاً ، ثم يشق قميصه من شدة انفعاله ويدخل حجرته ويغلقها عليه ..

وفى الصباح .. دخلنا حجرته ، فلم نجده فيها ووجدنا بدلاً منه رسالة يعاتبنا فيها عتاباً مؤلماً ويقـول لنا فيها إنه يحبنا كثيراً لكنه لا يعـرف كيف يثـبت لنا هذا الحب .. وإنه لا يريد منا مالاً، فلـقد كرهه كما كـره كل شىء فى الحياة .. ويطلب منى ألا أبحث عنه ..

ومن أمه ألا تدعو عليه بسوء لأنه ابنها مهما يكن من أمره .

ونزلت علىّ كلمات هذه الرسالة المريرة كالصاعقة .. وصهرت مشاعرى الأبوية التى تجمدت منذ سنين طويلة .. وشعرت وكأن سيخاً من الحديد المحمى بالنار يدخل فى أحشائى .. ولم يهدأ لى بال حتى عرفت أنه يقيم وحيداً فى بيت جدته لأمه فى بلدتنا الأصلية .. وقررت أن أدعه لنفسه بعض الوقت إلى أن تهدأ أعصابه ، ويعود إلينا ، ورحت أقلب فى كتبه وأوراقه التى تركها وراءه ، فوجدته قد كتب فيها كلمات ممرورة يقول فيها إنه يحس بأنه شخص غير مرغوب فيه ويتساءل : لماذا لا يهتم به أبوه ويقربه منه ؟ ولماذا حين تقطر عينه الدمع دماً لا يجد مَنْ يخفف عنه أو يشعر به ؟ .. ولماذا يتم كل شىء فى بيتنا بالشدة والشجار والصخب .. ثم يقول : كل كلام أبى وأمى مطاع طاعة عمياء حتى ولو لم يفهما ظروفى !

ويختتم تساؤلاته هذه بعبارة كادت تصيبنى بالشلل حين قرأتها وهى أنه يشك جدياً فى أنه لقيط وليس ابناً طبيعياً لى ولأمه وذلك على ضوء ما يحس به ويستشعره ، ويطالبنا باعتباره ميتاً ، مؤكداً لنا أن ذلك لن يكون صعباً علينا ، ونحن اللذين تركناه من قبل فى فترة كان فيها أضعف كثيراً منها الآن .

إننى يا سيدى فى ذهول مما قرأته فى أوراق ابنى وقد عز علىّ أنه لا يشعر بأبوتى له وأنا الذى على استعداد لأن أفديه بنفسى وعمرى ، وأنه يلومنا على تركنا له طفلاً رضيعاً وسفرنا إلى الغربة ، بدلاً من ترك أمه معه كما قال . وأقول أنا أيضاً بدورى .. إننا ما سافرنا إلى الخارج إلا لكى نحميه من ذل الحاجة والفقر ، وما تركناه فى رعاية جدته إلا لأن سنه كانت صغيرة للغاية

ولم تكن أمه تستطيع رعايته فى سنواته الأولى وهى تعمل بالغربة ، كما أننا لم نبخل عليه مادياً وقد وعدته بأن يكون له ما قدمته لأخويه كأساس لحياته المستقلة فى المستقبل وبمجرد تخرجه .

ولقد كنت أعمل فى الغربة ٢٠ ساعة فى اليوم من أجله ومن أجل أخويه أفلا يشفع لى ذلك عنده فى أن يلتمس لنا العذر فيما كان ؟!

إننى لا أتحمل أن أكون أباً ظالماً لأبنائه وزوجتى تقول لى إن ابننا هذا يتدلل ولا سبيل للتعامل معه إلا بالاستمرار فى التعامل معه بالشدة .

وأنا حائر بين ذلك وبين عاطفتى تجاهه وخوفى عليه ورغبتى فى إشعاره بعاطفتنا تجاهه .. فبماذا تنصحنى أن أفعل معه ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

افعل معه يا سيدى ما يفعله الأب حين يشعر بخطر ضياع ابنه النهائى منه ! اذهب إليه حيث يقيم وحيداً ممروراً واشرح له نفسك ودافع عن مشاعرك الأبوية المتهمة لديه وبرهن له على سلامتها وخلوها من كل شائبة حتى لو كانت تجربتك السابقة معه قد اتسمت بسوء التعبير عن هذه المشاعر ، فنحن لا نستطيع إعادة شريط الأيام إلى الوراء لكى نعدِّل من أحداثه أو اختياراتنا السابقة فيه .. لكننا نستطيع على الأقل أن نعالج بعض آثار هذه الاختيارات ونخفف من عواقبها كما نستطيع أيضاً أن نتحلى بالشجاعة النفسية والأدبية ونعترف بخطأ بعض هذه الاختيارات كما أثبتت لنا بعد ذلك تجربة الحياة بل وأن نعتذر عنها لأعزائنا الذين دفعوا ثمنها

غالياً من أمانهم وسعادتهم وتكوينهم النفسي .

ولا شك أن اختيارك أنت وزوجتك للاغتراب وترك طفلكما الوليد الذى لم يبلغ من العمر سوى ١٧ يوماً فقط وراءكما واستمرار غيابكما عنه ست سنوات كاملة ، كان اختياراً تربوياً وإنسانياً خاطئاً رجحتما فيه المصلحة المادية للأسرة على المصلحة الإنسانية والنفسية والتربوية لهذا الطفل الوليد ـ فكان اغترابكما المكانى عنه معادلاً لاغترابه النفسى عنكما ولافتقاده للإحساس الطبيعى بحضن الأم ورعاية الأب، ولا يفلح فى الاعتذار عن هذا النبذ العاطفى للطفل الوليد أنه قد ترك لرعاية جدته لأمه .. لأن الأطفال لا يربون بالنيابة عن آبائهم وأمهاتهم الطبيعيين إلا للضرورة القدرية وحدها وهى لم تتوافر فى ظروفكما .. ولأن الضرورة المادية التى اقتضت سفركما بغير اصطحاب هذا الطفل الوليد معكما لم تكن تتطلب منكما هجره لأكثر من أسابيع أو شهور ينضم بعدها إلى أسرتكما وينعم بالنشأة الطبيعية بينكما ، وتتشابك خيوطه مع خيوطكما منذ الصغر ، أما تركه لمدة ست سنوات كاملة وفى مرحلة بالغة الأهمية فى حياة الطفل تتحدد خلالها معظم سمات تكوينه النفسى الذى يصاحبه غالباً بقية عمره ، فلم يكن اختياراً عادلاً ولا سليماً من الناحية التربوية ، ولم يخفف من الأثر السلبى له محاولتكما تصحيحه بضمه إليكما فيما بعد لأنكما بدلاً من أن تستوعبا استشعاره للغربة بينكما ونفوره العاطفى منكما وتترفقا به إلى أن تنسج الألفة والاعتياد خيوط المودة والتفاهم بينه وبينكما ، آثرتما اتباع اسلوب « الحسم » معه وهو طفل صغير فى السادسة من

عمره يشعـر بأنه قد انتزع من بين أحضان أمه الحقـيقية فى مصر ، ليـعيش بين غرباء لا وقت لديهم ولا استـعداد للترفق به إلى أن يألفهم .

وليت هذا الاختيار الخاطىء كان آخـر الاختيارات الخاطئة فى التعـامل مع هذا الابن الأصغر .. فلقـد تلاه اختيـار آخر لا يقل خطلاً عنه وهو اختيارك لعدم التدخل بينه وبين أمه التى أكثـرت من إهانته وتجريحـه لأتفه الأسباب حـتى تحول إلى طفل منطو على نفسـه وشديد الهزال لانعـدام شهيتـه للطعام ظاهرياً ولافتـقاده الدفء العـاطفى فى حياتـه فى الحقيـقة . ولقد تواصلت هذه الاختيارات الخاطئـة حتى بلغت قمتها فى فرض زوجتك لإرادتهـا على ابنها فى نوع الدراسة الجامـعية التى التحق بها على الرغم من كراهيته الشديدة لها .. ورغبته فى غيرها . فكان التـعثر الدراسى وانتهاء مـرحلة التفوق من حيـاته أهون عواقب هذه الاخـتيارات .. أمـا أوخمهـا وأبعدها أثراً على شخـصيتــه وعليكم فهى انفصـاله عاطفيـاً ومعنوياً عنكم.. وتقوقعــه داخل ذاته واستشعاره للنبـذ وعدم الجدارة إلى الحد الذى بلغ به الشك فى صحة بنوته لكم !

ولقـد كان من الممكن أن تتـداركوا الكثـير من هذه النتـائج السلبـيـة لو كنت قـد أثرت ألا تـدع كل أمـر هذا الابن لوالدته دونك حتى لو كان أسلوب تربيـتها قد أثبت نجاحـاً عملياً من قبل مع أخـويه ، فالحق أن تربيـة الأبناء ورعايتـهم أخلاقـياً وتربوياً مسئـولية مشتركة بين الأبوين ولا يجـوز التفويض فيـها لأحدهمـا بتحمل كـامل المسئوليـة عنها دون الآخر كـما فعلت أنت .

كمـا أن الإشارة الخطيـرة إلى قرب وقـوع الانفجـار كانت كافـيـة أيضاً للإنذار المبكر بالخطر والنهـوض لعلاج الأخطاء قبل استـفحـالها .. وأقصـد بهذه الإشارة سـلاح الصمت الذى اعتـمده هذا الابن مـعكم جمـيعـاً منذ سن المراهقة . فـإذا كان صمـت الأطفال دليـلاً أكيـداً على تعاسـتهم لأنه خـروج على طبيعتـهم المتفائلة والصاخبة ، كـما يقول لنا الأديب الروسى الخالد دستويفسكى فى روايـة (المساكين) ، فإن صمت الأبناء فى سن المراهقة وبواكير الشباب إشـارة مخيفة إلى انفصالهم المعنوى واغتـرابهم النفسى عن ذويهم وإلـى انهيار الجـسور التى تصلهم بهم . فالصـمت إذا تواصل واستمر ، كـما فى مثل ظروف هذا الابن ، هو سلاح المقـهور للاحـتجاج السلبى عـما يعتبره إجحافاً به أو غـير مرض له ، وإشارة ابنك إلى طاعته العميـاء لكل ما يقوله أبوه وأمـه حتى لو لم يتفهـما ظروفه ، تأكيد مـؤلم لهذا المعنى ، لأن الطاعة العـمياء من شيم العـبيد الذين يطيـعون أوامـر سـادتهم وهم ينطوون لهم على أسـوأ مـشاعـر القهـر وربما الحقـد والكراهية وقـد لا يتورعـون إذا اتيـحت لهم الفرصـة عن البطش بهم ، لهـذا فنحن لا نسعـد - كآباء وأمهات - بمثل هذه الطاعة العمياء المقهورة من أبنائنا ، وإنما نسـعـد بالطاعـة الإراديـة الحرة الـقـائمـة على الفـهم والاقتناع وتبادل الآراء وتعـبير الأبناء عن أنفسـهم ورغباتهم الحقيقية بحرية .

وعلماء النفس يقولون لنا إنه لا يبدع أبداً مَنْ يعتاد الطاعة العميـاء والرضوخ الكامل والإذعان التام لما يقـوله الكبار من حوله ، لهـذا فلم يكن مستـغرباً ألا « يبدع » ابنك فى دراسـته

التى أرغم عليـها ، وبدلاً من التـماس العـذر له والصبر عـليه حـتى ينهى دراسـته بسـلام انطلقت عليـه سـهـام التجـريح والإهانة حتى بلغ السيل الزبى .. وانفجـر البركان المكتوم فى أعماقه .

لهـذا ، فـإنى أقـول لك فى النهـاية إنك وزوجـتك وابنيك الآخرين المتباعدين عن هذا الابن مسئولون جميعاً عما يعانيه من تعثـره الدراسى وعزلتـه واكتئـابه وصمـته .. وافتـقاده الإحـساس بالجـدارة والانتـماء إليكـم ، ومطالبون جـمـيعـاً باستعادته إلى أحضانكم والتعامل مع معاناته باحترام وفهم وليس باتهـامه بالتدلل أو الـتمرد ، فـهو شاب طـيب وسيئ الحظ ويحـتـاج إلى ترفـقكم به وإشـعاره بعطـفكم وحنانكم وليس إلى مزيد من الإهانة والتجريح والقسوة .. وإلا تفاقمت العواقب .

الذكرى الغالية!

أنا سيدة فى السادسة والعشرين من عمرى ، نشأت بإحدى مدن الأقاليم فى أسرة متوسطة الحال ، بين أب وأم و٤ أشقاء ، وكغيرى من البنات حلمت مع مطلع الشباب بالفارس الذى سيغزو قلبى فى الوقت المناسب .. وأتشبث به .. ونقيم معاً عشنا الصغير. وأنهيت دراستى .. فجاء الفارس .. ولم أكن قد رأيته قبل ذلك سوى بضع مرات فى مناسبات متفرقة بالرغم من قرابته لى ، فلقد شق طريقه مع أسرته فى مدينة أخرى غير مدينتنا وعمل بالتجارة ونجحت تجارته ، ثم أراد أن يبحث عن نصفه الآخر فرجع إلى مدينته الأصلية ، وقاده النصيب المكتوب إلىَّ . وما أن تقدم إلىَّ طالباً يدى .. حتى تغيرت نظرتى السابقة إليه من مجرد قريب اسمع عن نجاحه فى الحياة العملية ونبوغه المبكر وأصبحت أراه بعين مختلفة ويخفق قلبى واضطرب حين يتحدث إلىَّ ..

ووسط فرحة الأهل على الجانبين بارتباطنا .. تمت خطبتى إليه.. ولاحظت خلال مرحلة الخطبة سعادة إخوته الكبيرة بى ثم مضت الأمور فى طريقها الطبيعى .. وتم إعداد عش الزوجية فى سرعة قياسية وعلى أحسن مستوى .. وكلما تأخر إعداد شىء من الجهاز . ألح أهل زوجى بالإسراع بالانتهاء منه فى أقرب وقت ..

وسعدت بتعجلهم إتمام الزواج على هذا النحو واعتبرته نوعاً من الترحيب الحار بى ، وتم الزواج فى حفل سعيد .. وانتقلت إلى بيت الزوجية الجديد فى المدينة التى تقيم بها أسرة زوجى ، ومضت الفترة الأولى من الزواج سعيدة ومبهجة وواعدة بكل خير. ولم تمض أسابيع حتى كانت ثمرة الحب قد تحركت فى أحشائى .. وبدأت مرحلة جديدة من متاعب العمل اللذيذة فى حياتى وزاد من سعادتى ابتهاج إخوة زوجى الكبير بخبر حملى وحفاوتهم الزائدة به ، ولم يخفف من الفرحة بعض الشىء سوى تعرض زوجى لوعكة صحية طارئة تردد بسببها على الأطباء ، وانتظم فى العلاج وتحسنت حالته ورجعت الأحوال إلى طبيعتها السابقة .. ثم جاء موعد ولادتى ووضعت طفلتى الجميلة .. وبدأنا نستعد للاحتفال بيوم « سبوعها » .. واحتفلنا بالمولودة السعيدة احتفالاً كبيراً .. وفى المساء عاودت الوعكة الصحية زوجى الشاب وكانت شديدة بعض الشىء هذه المرة .. فتكدرت وشعرت بالحزن من أجله .. وفى صباح اليوم التالى غادر مع إخوته مدينتنا ليعرض نفسه على طبيب كبير فى الإسكندرية ، ورجع من الرحلة منهكاً ومهموماً وسألت أشقاء زوجى عما قاله الطبيب . فهونوا علىّ الأمر وقالوا إنها مجرد نزلة قولونية بسيطة وسوف يشفى بالأدوية بإذن الله .. فاطمأن قلبى وبذلت جهدى لرعاية زوجى وخدمته خلال هذه الوعكة .. لكن كثرة الأدوية التى يتناولها أثارت قلقى .. فأردت أن أطرد القلق والوساوس من ذهنى .. وفتحت إحدى علب الأدوية لأقرأ النشرة الطبية الخاصة بها وأعرف المزيد عن حالته الصحية ، فإذا بى أجدها خالية منها .. ففتحت بقية العلب ، فإذا بها كلها خالية من هذه النشرات ..

وتحسنت صحة زوجى بعض الشىء ورجع إلى عمله .. لكنه انتكس مرة أخرى واضطر للسفر للقاهرة لطلب العلاج لدى أطبائها .. وبعد ذلك كثر تردده على أطباء القاهرة وعودته من السفر مرهقاً ومهموماً .. وفى كل مرة لا يسمح لى بمصاحبته فى السفر ويصطحب معه أحد إخوته دونى .

ومضت بنا الحياة وحالة زوجى الصحية تتحسن فى بعض الأوقات ، فيرجع إلى عمله وتغرد عصافير السعادة فى بيتنا الصغير .. وتسوء فى أوقات أخرى ، فيخيم الحزن والهم والقلق على حياتى .. إلى أن فوجئت بعد عامين من زواجى بدخوله المستشفى لإجراء جراحة تتطلبها حالته .. وأجريت له الجراحة ورجع إلى البيت بعدها معظم الوقت يدير عمله التجارى بالتليفون.. ويستقبل المتعاملين معه فى بعض الأحيان وهو فى فراشه .. وأنا أقوم على خدمته والسهر على راحته .. وأتطلع لليوم القريب الذى سيسترد فيه عافيته ..

لكن الآمال قد لا تتحقق لـمَنْ يتعلق بها فى كثير من الأحيان ، فلقد ازداد ضعفه وتوالت الأزمات الشديدة عليه .. وإذا به بعد ستة أشهر من جراحته يلفظ أنفاسه الأخيرة .. ويودع الحياة تاركاً وراءه أرملة فى أوائل العشرينيات من عمرها وطفلة لم تكمل عامها الثالث !

وإذا بى اكتشف يوم رحيله عن الدنيا أنه كان مريضاً بالمرض الخطير من قبل أن يتزوجنى ، وأسمع من بين دموعى ونواحى خلال أيام العزاء والمواساة بعض إخوته يتحدثون عن نجاحهم فى إخفاء حقيقة مرضه عن الجميع طوال السنوات الماضية .. بل وعن

« اعـتـزازهم » بأنهم قـد أفلحـوا فى أن تـكون لهم منه « ذكـرى غالية» هـى طفلته !

وتسـاءلت فى أعمـاقى : ألم يكن من حقى أن أعـرف حقـيقـة مرض زوجى قبل الارتباط به كى اختار لنفسى طريقى فى الحياة على بينة ؟

أو لم يكن من حـقى ولو بعـد أن تزوجت منه أن أعـرف مـاذا يواجهه زوجى ووالد طفلتى من متاعب صحية ؟

لقد أسـودت الدنيا فى وجهـى .. وفهمت لأول مـرة لماذا كانت علب الأدوية كلها خـالية من نشـراتها .. وامتـثلت لأقدارى وآملت فى أن تعوضنى ابنتـى عن السعادة التى وئدت فى مـهدها . لكن أحوال الدنيا لم تسـمح لى حتى بذلك العزاء ، فلقد بدأت مـتاعبى مع إخوة زوجى حول ميراثه ، وخاصـة بعد أن استكتبنى أحدهم توكيلاً له لإدارة تجارة شقيقه ولم تفلح أى محاولة على المستوى العائلى لحل مـشكلات نصيـبى ونصيب ابنتى فى مـيراث زوجى الراحل ، وكـان الحل المقـتـرح من جـانب أسـرته هو أن يأخـذوا طفلتى منى لكى تنـشأ بينهم ويتكفـلوا برعايتـها .. ورفـضت هذا الحل الظالم نهائيـاً .. ورجعت بفستـانى الأسود وطفلتى اليتـيمة لأعيـش فى كنف أبى بالرغم من قلة رزقه ، وعـرفت بعد عـودتى الحسيرة أن إخوة زوجى قد اقتـسموا شقة الزوجية بينهم وبدأوا فى بيع أجـزاء من تركـة زوجى ، وامـتنعـوا عن سـداد أقسـاط التأمينات بحجة وقف النشاط التجارى ، وذلك بهدف حرمانى من معـاش التأمينات المسـتحق لى عن زوجى ، حـتى أضعف وأسلم باليأس وأسلمهم ابنتى .

إننى أكتب هذه الرسالة لتحذير أصـحاب النية الحسنة من غدر

الأحباب ، وأيضـاً عسى أن تقوم وزارة التأمينات بتسوية وضع زوجى الراحل ومنحى المعاش المستحق عنه لكى أرعى طفلتى به إلى جانب ما تسهم به أسرتى فى ذلك ، فهل تستطيع مساعدتى فى ذلك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو كان إخوة زوجك الراحل « يعتزون » حقاً « بالذكرى الغالية » التى خلفها وراءه شقيقهم ، لفرض عليهم هذا الاعتزاز أن يوفروا لها الظروف المثلى لنشأتها فى أحضان أمها إلى أن يشتد عودها ، ولجنبوا أرملة أخيهم خوض المعارك لانتزاع حقها وحق طفلتها المشروع فى ميراث أبيها .. ولأحاطوهما معاً بالرعاية الكاملة ووفروا لهما الحياة الكريمة سواء فى مدينتهم أو مدينتها .. بما يترتب لهما من حقوق الإرث فى تركة أخيهم .

أما أن يحاولوا انتزاع الطفلة الصغيرة من أحضان أمها بدعوى تنشئتها ورعايتها فى كفالتهم ، ويضغطوا على الأم بحرمانها وحرمان هذه الطفلة نفسها من حقوقهما المشروعة فى الميراث ، فليس ذلك من الاعتزاز الحقيقى بذكرى شقيقهم الراحل ، ولا بامتداده فى الحياة الذى تمثله الآن هذه الطفلة الحائرة فى شىء .

ومن المؤسف حقاً أننا فى تسابقنا المحموم على أعراض الدنيا كثيراً ما نخدش جلال المواقف الحزينة التى ينبغى أن تتوقف فيها الصراعات والأطماع ثم نزعم بعد ذلك وفاءنا لذكرى الأعزاء الراحلين .. ونحزن لفراقهم .. وننذرف الدمع فى مناسبات تذكرهم !

وذلك بدلاً من أن نتعلم من عبرة الموت ما يجعلنا أكثر عدلاً مع الحياة ، إنني أؤيدك تماماً في عـدم خضوعك لهذا الضغط المادي عـليك لكـي تسلمـي طفلتـك لإخــوة زوجك الـراحل .. فحــضانة الصغــير في المرحلة الأولى من عمـره حق للأم قبل غـيرها ثم لمحــارمــه من النســاء من بعدهــا ، ثم لمحارمــه من الرجال من بعدهن .

ولقـد حسم هذا الأمـر بالهدى النبـوى الحكيم حيـن جاءت امـرأة إلى رســول الله صلوات الله وســلامــه عليـه فـقـالت : يا رســول الله إن ابني هذا كـان بطني له وعـاء وحــجـرى له حــواء وثديي له سقــاء ، وأن أباه طلقني ويزعـم أنه ينتزعـه مني . فـقال لهـا الرسول الكريم صلوات الله وسـلامه علـيه .. « أنت أحق به ما لم تتزوجي » .

كـمـا حكم الصـديق أبو بكـر رضى الله عنه بين عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه ومطلقته الأنصارية في مسألة حضانة ابنهـا عاصم فـقال له أبو بكر : « ريحــها ومـسهـا ومســحهـا وريقها خير له من الشهد عندك » .

وقـد كان عـمـر أباه ، فمـا بالك بالأعـمام الـذين يسعـون لحرمان أرملـة أخيهم من حقـها المشروع في ميـراث زوجها .. ويحجبون حق طفلته الصغيرة نفـسها في إرثه لكيلا تستفيد بشيء منه أمها ؟

إن الأم التي تتهلل للتخلي عن وليـدها الصغير ، بمثل هذه السـهولة إنما تكرر نموذج الضـفادع التي تضع بـيضهـا في المستنقع ثم تترك صغارها تكـافح بمفردها للبقاء والنجاة من الأعداء الطبيعية لها .

وليس ذلك مما يشرف أى أم .. ومـا ينبغى له أن يكون من « مـؤهـلات » الرضـا عنهـا لدى أهل الزوج أو من أسـبـاب « تساهلهم » معها للحصـول على بعض حقها المشروع لديهم فى ميراث زوجها ، بل ينبغى لـه أن يكون من أسباب غضبهم عليها وسقوط اعتبارها فى نظرهم .

فـعلى أى شىء إذن ينـازعك هؤلاء الإخـوة « المعـتـزون » بذكرى أخيهم الغالية ؟

وأى « فخر » فى أن يتكتموا حقيقة الحالة الصحية لأخيهم وهم يتقدمـون معه لخطبة فتـاة صغيرة تحلم بحقـها العادل فى السعادة ؟

وأى عدل فى أن يحـجبوا عنها هذه الحـقيقة المؤلمة نفـسها حـتى بعـد أن شـاركت أخـاهـم حـيـاته وارتبط مـصـيـرها بمصيره؟

وأى « عـزاء » هذا الذى يقـدمـونه لهـا عن اسـتـدراجـهـا للارتباط بشقيقـهم بغير مكاشفتها بحقيقـة حالته الصحية ، وترك حق الاخـتيار لهـا ، فلا يكون تكـفيرهم عـن هذا الجرم الأخـلاقى تجـاهها سـوى مـحـاولة انتزاع طـفلتهـا منهـا أو حرمانها هى وطفلتها من كل حق لهما فى ميراث شقيقهم ؟

إننى أطالبك بالتمسك بحضانـتك لطفلتك .. وبحقها وحقك فى ميـراث أبيها ، واسـتخـدام كل الوسائل القانونيـة الممكنة لانتـزاع الحقـوق ممَنْ يرفض ردها ، أما طلبك بشـأن معـاش التأمـينات الخاص بزوجك الراحل، فإننى أضـعـه أمام السـيد رئيس الهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية .. وآمل فى اهتمامه ببحث أمرك وتذليل الصعوبات التى تحول دون نيلك لحقك .

الزيـارة المفـاجئـة!

أكـتب إليك لأسـتشـيـرك فـيمـا يشـغل فكرى الآن ويقـضى مضـجعى .. فأنا سيـدة فى الخمسـين من عمرى ، عشت حـياتى الزوجيـة فى سلام مع زوجى إلى أن اخـتاره الله إلى جـواره قبل سنوات قليلة ، وقـد تجاوزت صدمـة رحيله عن الحـياة بالصـبر والإيمان ، وشكرت ربى على مـا وهبنى من نعمة الأبناء والحـياة الهادئة ، وسـعدت بزواج ابنتى الكبـرى وسفرها مع زوجـها إلى الخارج ، وبتخـرج ابنى الآخر وعمله بوظيفة جيـدة وشعرت بأن رسالتى فى الحـياة قد أوشكت علـى التمام ، حـيث لم تبق أمامى سوى الابنة الصغرى التى تدرس الثانوية العامة ، فوجهت لها كل اهتمـامى وحرصت على توفير الجـو الملائم لها ، وأدت امتحـانها وظهرت نتيجـته، فكان مجموعها أقل من أن يسـمح لها بالالتحاق بالكلية التى ترغبـها فى مدينتنا .. ورشحـهـا مجموعهـا للالتحاق بكلية مناظرة ولكن فى إحدى جامعـات الجنوب .. فواجهت الخيار الصعب بين أن أحـرمها من الالتحـاق بكليتها المرغـوبة مع ما فى ذلك من متاعب اغترابها بعيدة عنى وقلقى عليها من الغربة .. وبعد تفكير طويل شاركنى فيه الأبناء ، استقر الرأى على ألا أحرمها من رغبتهـا فى الدراسة التى تفضلها وأن تسافر للإقامـة فى عاصمة

المحافظة التى تقع بها الجامعة على أن تقيم مع بعض زميلاتها كما تفعل فتيات أخريات فى مثل ظروفها ، وسعدت ابنتى بهذا القرار ، وبدأت تستعد للمـرحلة الجديدة فى حياتها .. وجاء مـوعد سفرها للدراسة .. فـأعددت لها كل مـا تحتاج إليـه فى غربتهـا وزودتها بنصـائح الأمهـات فى مـثل هذه الظروف وأوصـيتـها بالأخـلاق الحمـيدة والملابس المحتشـمة ومصادقـة الفاضلات من زميـلاتها دون غيرهن ، وسـافرت ابنتى مودعة منى بالـدموع حيث إنه أول فراق بينى وبينها منذ ولادتهـا ، وسافر معها أخـوها إلى عاصمة المحافظة .. وبحث لها عن سكن مشـترك مع بعض زميلاتها وترك أختـه بين زميلات السكن وفى رعـاية صاحب البـيت الذى يؤجر شقـقه للطالبات المغـتربات فى مدينته ، ورجـع ابنى فطمأن قلبى الملهوف وأكد لى أن إقامة طالبات هذه الجامعة المغتربات فى شقق سكنية مع زميلاتهن أمر منتشـر فى هذه العاصمة ، وأن أصحاب المنازل التى تؤجر للطالبات يتعـهدونهن بالرعاية ويحرصون على سـمعـة منازلهم .. واطمـأن قلبى بعض الشىء ومـضت شهـور الفـصل الدراسى الأول ثقـيلة وبطيـئـة ، ورجـعت ابنتى فى أول إجازة لها فاسـتقبلتها بالأحضان والقبـلات والدموع .. ووجدتها كما عـهدتها من قبل هادئة ومحـتشمة فى مظهـرها وإن كانت قد اكتسبت من غربتها بعض الجدية والاعتماد على النفس ، وانقضت فترة الإجازة سريعاً ورجعت لاستكمال الفصل الدراسى الثانى .. وتكرر مشهد الوداع والبكاء ، ودعوت لهـا الله سبحانه وتعالى أن يحميها من كل سوء ، ثم انتهى الامتحان ورجعت ابنتى فى إجازة الصيف ، فلمست هذه المرة اختـلافاً كبيرا فى شخصيـتها .. فلقد وجدتهـا ترتدى البنطلونات الضـيقـة « والبودى » وغيـر ذلك من

الملابس الشبابية .. وناقشتها فى ذلك وطالبتها بالعودة للملابس المحتشمة التى كانت ترتديها من قبل، فأجابتنى بأن هذا هو الشائع الآن فى الجامعة وأنها لن تكون « متخلفة » عن زميلاتها ! وكررت معها المحاولة ونصحتها كثيراً وتشاجرت معها دون جدوى ، فاستعنت عليها بشقيقها الذى تحدث معها طويلاً ثم رجع إلىّ يطمئننى على أخته ويؤكد لى أنه لا خوف عليها لأنها جادة وملتزمة .

وعادت ابنتى إلى كليتها .. ومن هناك أرسلت إلىّ تطلب نقوداً إضافية لحاجتها إلى دورات دراسية ، وأرسلت إليها ما طلبته ، ثم تصادف أن زارتنى صديقة لها تدرس معها بالكلية نفسها ، وكانت ابنتى قد أبلغتنى أنها تتلقى معها هذه الدورات، فسألتها عن نظامها وجدواها .. واكتشفت من خلال حديثها أنها خالية الذهن عن هذا الموضوع نهائياً وأنها لا تتلقى مع ابنتى أية دورات دراسية !

وكتمت دهشتى عن هذه الصديقة .. وافترسنى القلق والشك فى ابنتى ، فقررت أن أريح نفسى من هذا العذاب بالسفر إلى المدينة التى تقيم بها والاطمئنان على أحوالها هناك فى سكنها وكليتها ، وركبت القطار بغير أن أبلغ ابنتى مسبقاً بزيارتى لها .. ووصلت إلى عاصمة المحافظة فى الظهر واهتديت إلى المسكن الذى تقيم فيه مع زميلاتها .. وطرقت الباب ، فاستقبلتنى صديقاتها ورحبن بى ولم أجد ابنتى معهن ، فجلست أنتظر عودتها ، ودخلت إلى غرفتها ورتبت ملابسها وأشياءها ..

وقلبت فى بعض أوراقها .. فإذا بى أجد خطاباً بخط يدها إلى شخص لا أعرفه تدعوه فيه بـ « زوجى العزيز » وتحدد له موعداً

للقاء فى المسكن عقب سفر زميلاتهن إلى أسرهن !.. وصعقت لما قرأته وشعرت بما يشبه الدوخة ، فتمددت على الفراش لبعض الوقت لكى أحاول تمالك نفسى وانفجرت فى البكاء وحدى فى الغرفة المغلقة .. وأخفيت دموعى عن زميلات السكن إلى أن رجعت ابنتى فى المساء وفوجئت بوجودى فى غرفتها .. وفوجئت أكثر من ذلك بسؤالى لها مَنْ هذا الشخص الذى تدعوه « زوجها العزيز» وتوقعت أن تنكر كل شىء .. وتكذِّب ظنونى ومخاوفى .. ففوجئت بها تقول لى فى هدوء إنها « متزوجة » بالفعل من هذا الشخص عرفياً .. وأنه يكبرها بعامين وأنها لم ترتكب حراماً .. بل إن هذا هو « السائد » الآن .. وأنهما متفقان على أن كلاً منهما يستطيع أن يتخلص من الآخر فى أى وقت يشاء فيه ذلك !!

ثم تركتنى واتجهت للمطبخ لتحضير العشاء وكأن شيئاً لم يكن ! وتجمدت أنا فى موقفى كأنما قد أصابنى الشلل فى جسمى، وفى عقلى ، وحين رجعت بعد قليل كنت قد تمالكت نفسى ، فانفجرت فيها وانهلت عليها ضرباً وركلاً وصراخاً، فأسرعت بالفرار إلى الحمام وأغلقته على نفسها من الداخل واعتصمت به رافضة الخروج منه حتى الصباح .

أما ما حدث لى بعد ذلك، فأنا لا أذكر منه سوى أننى أغمى علىّ أكثر من مرة ..

والآن يا سيدى، فإننى حائرة فى أمرى وأمر ابنتى ولا أدرى ماذا أفعل معها وبها ، فلقد تكتمت قصتها حتى الآن عن أختها وأخيها وكل أهلى ، ولا أدرى ماذا سيفعلون معها إذا عرفوا بما حدث .. فهل أقوم بإبلاغهم بما كان من أمرها أم أواصل تكتمه ومعاناته وحدى .. وهل أرغمها على ترك هذا الشاب وترك كليتها

كلها والعودة لمدينتى والالتحاق بأى كلية فيها أم ماذا أفعل ..؟

وأين الخلل يا سـيدى الذى أدى بنا إلى هذا الوضـع الخطـير ..
هل هو فى تربيتى وتربية زوجى الراحل لها ؟

لقد أخذناها فى تربيتنا لها بالحزم والحنان معاً .. فكيف تسفر مثل هذه التربية عن هذه الكارثة يا سيدى !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أبشع من ارتكاب الخطأ ألا يشعر مقـترفه بأنه قد أتى أمراً إداً يستوجب الحساب والعـتـاب ، فضلاً عن الرجوع عنه . ذلك أن الإقرار بالخطأ هو الخطوة الأولى عـلى طريق الرجوع عنه وتقويمه .. أما التعامل مـعه وكأنه من طبائع الأمور وبدهيات الحياة .. فلا يكشف إلا عن خلل خطير فى القيم والمفاهيم لدى مرتكبه لا يبشر بأى أمل قريب فى إمكان رجوعه عنه .

والإنسان السوى قـد يضل الطريق فى بعض الأحيان لكنه يظل واعياً دائماً بما اقتـرف ولا يجادل فى خطأ ما فعل ، حتى لو حاول تبريره والتماس العذر لنفسه فيه بضعفه أمامه ، أو بغير ذلك من المبررات ..

أما مَنْ يرتكب أفدح الأخطاء ولا يراوده فى الوقت نفسه أى إحـساس بخـطأ ما فـعل ، فـإنه يضـيـف إلى أخطاء السلوك ، انحراف التفكير واهتزاز القيم .. وفساد المنطق ، وضعف الأمل فى إصلاحـه ورجوعه من خطئـه ، فضلاً عن فجـر المجاهرين بالخطأ الذين أرشدنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الله سبحـانه وتعالى لا يحبهم ، وقـد يترفق بالمخطىء على استحياء .. ويضاعف العقاب لـمَنْ لا حياء له .

وإحساس ابنتك بأنها لم تقترف « حراماً » بمثل هذا الزواج

العرفى الذى ارتبطت به بغير إذن أوليائها .. يكشف فى الحقيقة عن انحراف فى القيم أفدح من الخطأ الذى ارتكبته نفسه .

فالزواج العرفى الذى يستوفى كل شروطه وأركانه إذا كان صحيحاً شرعاً ، فإن إقدام فتاة صغيرة على الارتباط بشاب تحت مسمى الزواج العرفى بعيداً عن نطاق الأهل .. وبغير علمهم .. وموافقتهم هو خطأ أخلاقى فادح يتنافى مع كل القيم والأعراف العائلية والأخلاقية .. ولا يمكن الدفاع عنه أبداً بأن مرتكبه لم يقترف « حراماً » أو بأن هذا هو « السائد » فى الجامعة كما تزعم ابنتك .

بل ولا يمكن تبريره أو تفسيره إلا بالطيش والاندفاع والاستسلام للأهواء والرغبات .. وخيانة ثقة الأهل .. وافتقاد التقدير الصحيح للمسئولية الأخلاقية للإنسان تجاه نفسه وأعزائه ومَنْ يهتمون بأمره ، فنحن لا نعرف كيف تم هذا « الزواج » العرفى المزعوم بين ابنتك وهذا الشاب ، وهل استوفى شروطه وأركانه وتم الإشهاد عليه أم لا ؟ وهل تم بنية الاستمرار وتحويله إلى زواج رسمى فى المستقبل القريب . أم بنيّة التمتع المؤقت خلال مرحلة الدراسة والاغتراب كما يوحى بذلك « اتفاق » طرفيه على أن يتخلصا منه إذا شاء أحدهما ذلك فى أى وقت !

لكننا نعرف بكل تأكيد أن الزواج العرفى الذى يفتقد الإشهار ونية الاستمرار باطل باتفاق مذاهب أهل السنة . وأن الظروف المحيطة بالقصة كلها لا توحى بفهم طرفيه لقدسية الزواج واستمراريته وتكفى سرية هذا الزواج وإتمامه بعيداً

عن نطاق الأهل لكى تحيط به الشبهات وتخرجه من نطاق الزواج المشروع إلى نطاق آخر لا يختلف كثيراً عن نطاق العلاقة السرية المتشحة برداء زائف من المشروعية !

وإنى أرى لك يا سيدتى ألا تتحملى كل هذا العناء وحدك . بل تشركى معك فيه ابنك الأكبر وابنتك المتزوجة ، على أن تبدئى خطواتك لإصلاح ما فسد بدراسة وضع ابنتك الحالى بعد هذا الزواج المزعوم ، فإذا كان قد سبق السيف العزل ولم يعد هناك ما يرجى سوى تصحيح الخطأ وإسباغ الشرعية الحقيقية عليه ، فإن من واجبك كأم أن تسعى مع ابنك إلى أهل هذا الفتى وتطالبيهم بتحمل مسئولية ما اقترف ابنهم فى حق ابنتك ، ومساعدتك على تحويل هذا الارتباط العرفى الشائن إلى زواج صحيح مشروع ، وذلك بعقد قرانه على ابنتك واعتبارهما خطيبين ينتظران انتهاء الدراسة لبدء رحلة الزواج الحقيقية .

أما إذا كان الأمر غير ذلك ، فإن هذه الظروف الشائكة تتطلب منك أن تلازمى ابنتك حيث تقيم ، وتفرضى عليها رقابتك وإشرافك إلى أن تمضى الفترة المتبقية من العام الدراسى فى سلام ، على أن تحاولى خلال ذلك اختبار مدى جدية ابنتك فى التمسك بهذا الشاب وعمق رغبتها فيه ، وظروف هذا الشاب نفسه وصدق رغبته فى الارتباط بابنتك ، فإذا اطمأن قلبك إلى جديته وأمانته وصدق رغبته فى ابنتك ، فليتقدم مع أهله لخطبتها منك .. مع تخلصهما فى نفس الوقت من هذا الزواج المريب .

أما إذا تكشفت لك التجربة عن عبث هذا الشاب وعدم

جديتـه ، فإن خير مـا تفعلينه هو أن ترجـعى مع ابنتك عقب أدائها امتـحان هذا العام إلى مدينتك وتفرضى عليهـا الانتقال من هذه الكلية إلى أية كلية أخرى مناظرة أو غير مناظرة لكى تكون تحت أنظارك وحـتى تـبـرأ من آثار هذه النزوة المدمـرة وتثوب إلى رشدها .. وتدرك أن إنقاذها من الضـياع أهم كثيراً من نوع الـدراسـة الـتى تهـواها أو العـمل الذى تـرغب فى ممارسته بعد التخرج ، فهى لم تغترب من الأصل لكى تنخرط فى علاقة سرية مؤقتة تتسربل بقناع الزواج العرفى مع شاب عابث وإنما لكى تحقق أهدافها فى الحياة ولقد أجرمت فى حق نفسها وأسـرتها حين غفلت عن الهدف الأساسـى من اغترابها وتورطت فـيمـا تورطت فيـه ، ومن واجـبهـا أن ترضى بدفع الثمن العادل لما اقترفت من أخطاء فادحة حتى لو اقتضى ذلك تغيير مسارها فى الدراسة والحياة !

درجـــات الـرأفـــة !

أنا رجل فى الثـامنة والثلاثين من عـمرى أعـمل عمـلاً مهنـياً مـرموقـاً ولدى مكتب خـاص ، هادىء الطبـاع وطيب القلب ومن أسرة متوسطة الحال لكن لها تراثها فى الأخلاق والتربية والأصل الكريم .. ولقـد تعرفت ذات يوم علـى زميلة لى فى مـجال عـملى ورشحـها الزملاء لى للزواج .. ووجـدتها مناسـبة لى ، فتـقدمت لخطبـتهـا وتم عقـد القران وتزوجـنا . وبعد الزواج تكشـفت لى شخصيتها الحقيقية، فإذا بها إنسانة حادة الطباع، سليطة اللسان، قبيحـة الألفاظ .. وحاولت كثيراً إصلاحهـا وخاصة بعد أن رزقنا الله طفلة جميلة ولكن دون جدوى فـاستسلمت لأقدارى ، ورضيت بحيـاتى كما هى واستـمر زواجنا ثمانى سنوات لم نعش خـلالها معاً أكـثر من بضعة شـهور فى مجمـوعها .. أما بقيـة الأيام فلقد هجرتنى خلالها وأقامت فى بيت أهلهـا على فترات متقطعة ، وفى آخـر مرات هجـرها لبيت الزوجـيـة طلبت الطلاق وأصرت عليـه وحاولت بكل مـا أملك من حيلة اسـتعادتـها مرة أخـرى ، وحاول معى الأهل جاهدين ذلك لكنها تمسكت بمطلبـها ، ولم أجد مفراً من إجابتـها إليه ، فطلقـتها منذ عامـين وأنا حزين لفشلى فى حـياتى الزوجيـة ، ونشأة طفلـتى الوحيدة بـعيداً عنى .. وزاد مـن أسفى

أننى علمت بعد طلاقى لها أنها حامل فى جنين آخر ، وبعد شهور أنجبت طفلة أخرى .

أما أنا قد سلمت أمرى إلى الله وعشت حياتى فى كنف أسرتى، وحاولت نسيان مرارة التجربة والتعزى عنها .. وذات يوم دخلت مكتبى سيدة جميلة هادئة الطباع مع طفل لها فى عمل يتعلق بها . فأديت العمل المطلوب منى لكنى وجدت نفسى منجذباً إلى هذه السيدة بإحساس غامض وخلال ممارستى لعملى تبادلت معها أطراف الحديث، فعلمت منها أنها أرملة وأن عمرها ثلاثة وثلاثون عاماً ولها طفل آخر أكبر من الطفل الذى اصطحبته معها بعامين وشعرت بالرغبة فى أن أراها مرة أخرى ، فاصطعنت سبباً لتكرار الزيارة وطلبت منها العودة مرة أخرى بعد أسبوع لإتمام العمل الذى جاءت من أجله وانصرفت هى شاكرة ، وترقبت عودتها باهتمام شديد وفى الموعد المحدد جاءت من جديد ، فشعرت بالسعادة داخلى .. وبقلبى يخفق فى صدرى كالمراهقين .. وتجاذبت معها أطراف الحديث ، فاسترحت لحديثها العذب وأسلوبها الجميل وطبيعتها الهادئة وجمالها وأناقتها واحترامها لنفسها ولِمَنْ حولها ، تبادلنا أرقام التليفونات ، وبدأت المكالمات التليفونية بيننا وبعد فترة من الاتصالات اعترف كل منا بحبه للطرف الآخر ، ووجدت هى نفسها معى ووجدت أنا نفسى معها ولمست لديها الحب والتفاهم والثقة بالنفس .. وكل شىء جميل فى الحياة إلى جانب أنها إنسانة مثقفة ولها مركز مرموق فى عملها ، واتفقنا على الزواج .. وبدأت الاستعداد له ، فإذا بى أجد نفسى أمام خيار صعب لم يكن فى تقديرى قبل ذلك ، فلقد علمت مطلقتى وأم الطفلتين بنيتى فى الزواج ، فبعثت بمندوبين من أهلها

للصلح .. وجاءت هى نفسها إلى أسـرتى فرحبت بها الأسرة وبدأ أهلى يحثوننى على إعـادتها إلى عصمتى لكى تـنشأ الطفلتان بين أحضـانى ، وفى الوقت نفـسه تغـيرت مـعاملة أسـرتى للسـيدة الأخرى عند اتصالها بى بالتليـفون فى البيت وبدأت تشكو لى من تحفظ الأهل أو جفائهم معها حين يجيبون عن مكالماتها .

وأنا الآن حائر فيما أفعل ، فلقـد كرهت عشرة زوجتى السابقة بسبـب مرارة تجربتى مـعهـا ، لكنى لا أحب فى الوقت نفـسه أن أظلم الطفلتين وأحـرمهما مـن حقهمـا فى الحياة مع أبيهـما ، ولو ترك لى الأمر لاخترت أن أعيش مع هذه السيدة الأرملة التى أحبها جداً ولا أطيق فراقها ومعنا طفـلاها والطفلتان ونحيا معا كلنا فى سعادة ، لكنى أدرك اسـتحالة تحقيـق ذلك فى ظل قانون الأحوال الشخصية الذى يعطى حق حضانة الطفلتين لأمهما .. فكيف أواجه هذا المعادلة الصعبة . وأى خيار أختاره !

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أنت محق بالفـعل يا سيدى فى ترددك واضطرابك أمـام ما تواجـهه الآن من اخـتـيار لحـيـاتك وأيامك المقـبلة .. ذلك أنه اختـيار بين « وعـد بالسعادة » مع هذه الأرملة الـشابة التى تعرفت عليهـا بعد عامين من انفصالك عن زوجـتك السابقة ، وبين « وعد بالأمان والاستقرار » لطفـلتين صغيرتين يدعوك ضمـيرك الأخلاقى للوفـاء لهما به حتـى لو تخوفت من تكرار التجربة المريرة التى عانيتها من قبل .

وكلمـا كـانت الخـيـارات التى يـتـردد بينهـا المرء عـادلة ومشروعة ، ازدادت حيرته معها .

غـير أن نداء العـقل يطالبنا فى كل الأحـوال بالتروى قـبل

ترجيـح بعض هذه الخيـارات على بعضـها الآخـر . وتجربة العمر تـقول لنا إنه لا تأكيد لشيء فى الزواج الذى لم تنـعقد عراه بعد إلا بالتـجربة الفعلية والمعـاشرة المشتركة واخـتبار الأيام لصدق الوعـود والأحلام الوردية بالسعادة مع شـركاء الحيـاة ، وعلى هذا الأساس أقـول لك إن الوعد بالسـعادة مع هذه الأرملة الشـابة يظل وعـداً معلقـاً إلى أن تخـتبـره الأيام وتحققـه على أرض الواقع . كما أن الاختيـار العاطفى فى مثل ظروفك هذه وإن كان له ما يؤيده من مبررات ودوافع .. إلا أنه لن يكون خـاليـاً من النواقص والمكدرات لافـتقـادك لطفلتـيك وإحـساسـك بالذنب تجاهـهمـا لحـرمانـهمـا من حق النشـأة الطبيعية بين أبوين يجمعهما بيت واحد .

أما على الجانب الآخر الخاص بزوجـتك السابقة ومعاناتك القديمة معها ، فإن توجـسك من تكرار التجربة المريرة معها . له أيضاً مـا يبرره وما قد يدفعك لـترجيح الاختيـار العاطفى على قبول مـساعيها للعودة إليـك ، لكنه ليس من المؤكد أيضاً أن تكرر «طلقـتك تجـربتـها السـابقـة مـعك بنفس أخطائهـا وعثـراتها» وإلا فـما قـيمة التـجربة والخطأ إذن إذا لم تـكن قد استفـادت شيئاً من فشلها مـعك وحرمان طفلتيها من أبيـهما ، ومجىء طفلتها الصغرى إلى الحياة فى غيبة أبيها ؟

لقد استشعرتْ الخطر حين علمت بنيتك فى الزواج، فسعت إليك هى هذه المرة طالبـة العـودة إليـك ، ولابد أن يكون ذلك مؤشراً إيجابياً على تغير بعض أفكارها ومـلامح شخصيتها ، وإلا لما تنازلت عن كبـريائها السـابقة وسعت إليك وقـد كانت هى التى رفـضت من قبل كل مـحاولات الصلح وأصـرت على الطلاق .

ومعنى ذلك أنك أمام « وعـدين » كل منهما غير مـؤكد حتى الآن وإن أوحت شواهده بغير ذلك .. الأول بالسعادة مع أرملة شـابة جميلة وهادئة صادفـتك وأنت فى فـترة من الضـعف النفسي وفقد الثقة فى النفس والإحساس بالوحدة عقب مرارة الفـشل فى الزواج ، والثانى بالـتعـاسة وتكرار المعـاناة لدى مطلقتك مع توافر الحد الأدنى من الأمان والاستقرار لطفلتيك ، ولأن الإنسان لا يستطيع للأسف أن يخضع المستقبل للتجربة لكى يختار لـنفسه طريقه فيـه على ضوء نتائج الاختـبار فلا مفر أمامـه من دراسة الواقع ومحاولة استقـراء المستقبل على ضـوء مـا يتـاح له من شـواهد وعـلامـات الطريق ، وأول ما ينبـغى لك أن تتبـصره جيـداً قبل اتخـاذ أى قرار هو : هل اخـتيـارك العاطفى لهذه الأرملة الشـابة هو اختـيار نهـائى لا رجعة فيه ولا مبدل له أم أنه اختيار « للأفضل » مع إمكان القبول « بالمفضول » إذا رجحته اعتبارات أخرى جليلة الشأن كسعادة الأبناء واستقرارهم وخلو القلب من الإحساس بالذنب تجاههم ؟

وهل هذه العاطفة التى تحملها لهذه الأرملة الشابة عاطفة حقيقية راسخـة وثابتة ثبوت الجنادل لتيارات المياه ، أم أنها عاطفـة عابرة صـادفت قلباً خـالياً ونفسـاً جريحة ، فـوجدت الطريق ممهداً أمامها بلا عناء ؟

وهل تسـتطيع أن تجـزم صـادقـاً بأن زوجتـك السابقـة لم تستوعب دروس تجـربتها الفاشلة معك ولم تـتخلص بالفعل من بعض ما أنكرته عليها خلالها ؟.. وبالتالى ، فإنك تستطيع استئناف الحياة معها .. وتجاوز صفحتها القديمة معك ؟

إنك وحدك مَنْ يملك الإجابة عن هذه الأسئلة .. فوجهها إلى نفسك و « اختبر » إجاباتها بموضوعية ، فإذا جاءت النتائج في النهاية مؤيدة لاختيارك العاطفى والأمل فى السعادة التى ينغصّها الحرمان من طفلتيك والإحساس بالذنب تجاههم فامض فى الطريق الذى يؤدى بك إليه ، وإذا جاءت النتائج مرجحة لكفة الأمل فى انصلاح الأحوال بينك وبين زوجتك السابقة .. واستقرار طفلتيك فى كنَف أبويهما ، فإن واجبك الأخلاقى والإنسانى يدعوك لترجيح هذا الاختيار والاعتذار للأرملة الشابة عن مشروع الارتباط بها .

أما إذا تساوت الكفتان أو حتى تقاربتا ، فإن هذا الواجب نفسه يدعوك بغير تردد إلى تفضيل طفلتيك وزوجتك السابقة.. واحتساب درجات الرأفة لصالحهن أملاً فى سعادة الجميع واستقرارهم .. والسلام .

الحـــزام المشـــدود !

أكتب إليك رسالـتى هذه لأقص عليك مأساتى التى أعيـشها أنا وأبنائى مع زوجى الذى يعمل أسـتاذاً جامعيـاً وله من عمله دخل ممتاز إلـى جانب دخله من المشـروعات المتعـددة التى تعود عـليه بالربح الوفير . فلقـد تخرجت فى كلية مرموقة بتقـدير جيد لكنى لم أعـمل .. ولعلى لو كنت قـد عمـلت عقب تخـرجى لربما كـانت معاناتى مع المشكلة ـ التى أكتب لك بشـأنها ـ أخف وطأة .

أمـا سبب لجـوئى إليك ، فـهو أن زوجى شـديد الإعجـاب بك وبردودك على مَنْ يطلبون مشورتك للخروج بهم من الأزمات التى تواجههم ، ولأنى على ثقة من أنه سوف يسمعك ويعمل بنصيحتك ويرحمنا من العذاب الذى نعانيه .

فزوجى بالرغم من سعة رزقه يبخل علينا بماله ولا يعطينا منه شيئاً على الإطلاق ولكى تشعر بجدية مشكلتنا ، فسوف أحكى لك عن نظام حياتنا معه .. فنحن لدينا أبناء فى مراحل التعليم المختلفة من الحضانة حتى المرحلة الإعدادية ، وزوجى يحـرمهم جميعاً من المصـروف ولا يعطى أحـداً منهم قـرشـاً واحـداً ـ كـمـصـروف شخصى له بحجة أن إعطاءهم النقود سـيؤثر سلبياً على أخلاقهم ويعرضـهم للانحراف ومجاراة أصـقاء السوء ! . والنتيجة هى أن

أبنائى يمـدون أيديهم لزملائهم فى المدرسـة ليأخذوا منهـم قطعة حلوى أو لبـان أو شـبـسى لأنه لا وسـيلة لهم لتـذوق مـثل هذه الأشـيـاء التى يتطلع إليـها الأطفـال إلا « بتسـولها » من زمـلائهم الذين يقولون لهم إنهم « شحاذون » .. ويرجع إلىّ أبنائى ليشكوا لى من ذلك !

كما أن زوجى يحرمنا جميعاً من شتى أنواع الفاكهة بحجة أنها قـد تم رشهـا بالكيمـاويات والمبيـدات الخطيرة جـداً على صحـة الإنسان ، ونـظراً لأنه يخاف علينا من أضـرارها ، فهـو يحرمـها علينا ولا يسمـح بشرائها أو دخـولها البيت مع أننى قـد أكدت له مراراً وتكراراً أن غـسل الفاكهـة جيداً بالماء النظيف يـكفى لتجنب هذه الأضرار .

أمـا عن الطعـام ، فنحن لا نعرف منـه طوال أيام الأسبـوع إلا الأنواع الشـعـبية الرخـيصـة كـالفول والـطعمـيـة والكشـرى الإسكندرانى وهى طـعامـنا كل أيام الأسـبـوع إلى أن يجىء يوم الجمـعة .. وهو اليوم العـالمى للتغذية فى حـياتنا ، فيـقوم زوجى بشراء كيلوجرام من اللحم المجمد ويدخل به المطبخ ليطهوه بنفسه لكى ينفرد به ويظل يتـسلى بالتهام معظمـه خلال الطهى والأبناء ينتظرون الغـداء الشهى بفارغ الصـبر ، وبعـد ساعات من غـياب زوجى بالمطبخ يخرج علينا وقد وضع لكل فرد مـنا قطعة صغيرة من اللحم على طبق الأرز ويبدأ يوم الغداء العالمى فى بيتنا.

أما أنواع الحلوى من الجـاتوه والشيكولاتة والبونبـون، فكلها بلا استثناء من المحرمات علينا لأنها تهدد أسنان الأبناء بالتسوس وهو يريد لأبنائه ولى بـالطبع أسناناً سليـمة ناصـعـة البيـاض ! وذلك بالرغم من أنه حـين يشـهد مـعنا حفل زفاف أو قـران لأحد

الأقارب يلتهم كل ما يقع تحت يده من التورتة والجاتوه بلا رحمة ، ويحث أبناءنا على أن يلتهموا منها بقدر ما يستطيعون ، لكي تمدهم بالنشاط وتعينهم على السهر حتى نهاية الفرح كما يقول لهم !

فضلاً عن أنه يمسك بمصروف البيت في يده ولا يعطيني مليماً واحداً منه بدعوى أن السيدات لا يصلحن لإدارة الشئون المالية للأسرة ولأنهن قد خلقن كما يقول لرعاية الزوج والسهر على راحته وراحة الأبناء ، ولهذا فإن الزوجة المثالية كما يؤكد لي مراراً وتكراراً هي خادمة وعشيقة فقط ولا تصلح لأي شيء آخر !

والنتيجة يا سيدي هي أنه لولا مساعدة أبي المادية لي لما استطعت اجتياز كثير من مصاعب الحياة التي واجهتها وأواجهها كل يوم .. لكني أشعر بالحرج الشديد من مساعدة أبي لأنه أحق بما يعطيه لي وقد أدى رسالته نحوي ونحو إخوتي على أكمل وجه ولم يحرمنا من شيء .. فإذا بي أصبح عبئاً عليه أنا وأبنائي وأنا أعيش في كنف رجل آخر كل همه هو الإدخار والإدخار فقط .

لقد تحدثت إلى زوجي مراراً وتكراراً ولجأت إلى أهلي وإلى أهله لكي ينصحوه بأن يرحمنا ويخفف عنا جفاف حياتنا .. فكان رده عليَّ وعلى الجميع أن لديه مشروعات عديدة وطموحات كبيرة لابد له من أن يحققها أولاً قبل أن يتخفف من هذا الجفاف . حتى والده الرجل الطيب قال له : ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء .. فأجابه بنفس الرد وطلب منه أن يدعه يحيا حياته كما يريدها مؤكداً له أنه لا يحرمنا من شيء !

وبعد فشل جمـيع المحاولات من جانب والدى ووالده قررت أن أطلب منه الطلاق لأتخلص من هذه الحياة المهينة القاسية الجافة .. لكنى بعـد أن قـرأت رسالة الطفلة الـتى نشرتهـا بعنوان « البـيت الجميل » والتى تشكـو من حرمانها هى وشقـيقتها من أمـها بعد طلاقها من أبيها ، شعرت بالحزن والأسى .. واستشعرت خطورة كلمة الطلاق وخشيت على أبنائى من مصير هذه الطفلة ، وحاولت بشتى الطرق إصلاح زوجى وتذكيره بنعمة الله الجليلة علينا وهى الأبناء وكيف أن علينا أن نرعاهم ونوفـر لهم الحياة الكريمة ، فلم يسمع لى مع أنه كاد يبكى وهو يقرأ رسالة هذه الطفلة فى « بريد الجمعة » !

إننى لن أخفى عليك أننى قد اضطررت مع استمرار حرمانه لنا أن أخـذ من ماله مـبلغاً بـسيطاً لأشـترى مـلابس لأولادى ولى ، ولكى أرى الفـرحـة فى عـيونهم بعـد طول حـرمـان من الملابس الجديدة يرتدونهـا أمام الأقارب والأصـدقاء ، والنتيـجة معـروفة مقـدماً .. فقد ثار عـلىّ زوجى ثورة عارمة واتهـمنى بأننى نشالة ولصـة وعـديمة الأخـلاق والتـربيـة ووجه لـى شتـائم وألفـاظاً لا أستـطيع أن أخطها لك . وتحـملت كل ذلك من أجل أبنائى كـما تحملت الكثير من قبله .

إننى أرجوك أن توجـه إليه كلمـة تنصحه فـيها بـأن يرحمنا . وتقول له إن الأبناء نعمة من الله يجب عليـه رعايتها وأن لهم عليه حقاً ولزوجته كذلك هذا الحق، فلقد قال الله سبحانه وتعالى: «**المال والبنون زينة الحـيـاة الدنيـا** » وهو لا يعـتـرف بزينة الأبناء ويعترف فقط بزينة المال . سيدى إنك الآن الأمل الوحيد الباقى لنا للخروج مما نحن فيه من حرمان وشقاء.. فهل تستجيب لرجائى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

وهل تظنين حـقاً يا سيـدتى أن كلمة أوجـهها إلى زوجك العـزيز يمكن أن تعـدل به حـقـاً عن الخطة الـتى ارتضـاها لحياته.. ورضـى معها لنفسـه وزوجته وأبنائه بهـذه الحياة الجـافـة المحرومـة .. حـتى ليـتطلع أطفـاله إلى مـا فى أيدى قرنائهم ويستجدوهم بعضها ؟

لقـد تحدثت فى رسـالتك عن ضـرورات الحيـاة كالطعـام والكساء وإشـباع رغـبات الأطفال فـيمـا يتفكَّه به الصـغار ، ولم تشـيرى إلى مـا لا يُعـد من كمـاليات الحـيـاة بالنسيـة للقـادرين كـالنزهات والـرحـلات والأندية وغـيـر ذلك مما تستروح به الأسرة وتخـفف به عنها عناء الأيام ، ولقد فشلت مع زوجك كل جهـودك وجهـود أهلك وأهله فى إثنائه عن هذه الخطة الشائنـة وهو الأستاذ الجـامعى وصاحب المشـروعات والأعمال والطموحات ، فكيف تنجح إذن كلمة من ناصح مثلى فيـما فشل فيـه الأقربون .. وكيف تحـرك فى قلبه ومشـاعره ما لم تحركه نظرات الحرمان فى عيون الأبناء ؟

إن البخل آفة لا علاج لها للأسف .. ولا أمل كبيراً فى الشفاء منها إلا فى أندر الأحوال ، أو تحت تأثير قـوى قهرية ضاغطة لا يملك مـعها صـاحبـه إلا أن يتنازل كارهاً عن بعض شـحـه وتقـتـيره وليس عن كـله تجنباً لأضرار أكـثر عليـه خطراً من تفريطه المحـدود فى المال كخطر انفـراط عقـد الأسرة بالطلاق مـثلاً إن لم يسـتـجب لمطالب الزوجـة بالإنفاق عـليهـا وعلى الأبناء بما يليق بمسـتـواهم الاجتـمـاعى أو ما شـابه ذلك من الضـغوط . أما عـدا ذلك من المناشـدات والرجاءات فـلا تحرك

ساكناً لدى مَنْ يرى فى المال قيمـة تعلو على كل أهداف الحياة وفى مـقدمـتهـا سعـادة الأبناء والزوجة واسـتقـرار الحيـاة الزوجية وهناؤها .

لهذا ، فإن أفضل السبل لمواجهة هذا الحرمان الذى تكابدينه هو أن يكرر والده ووالدك ضغطهـما عليه بشدة لتـحديد مبلغ عادل يتناسب مع مطالب الأسـرة واحتياجات الحـياة للإنفاق عليهـا شهرياً سواء تمسك هو بإدارة مـوازنة الأسرة أو تخلى عنها لك ، ولو تطلب الأمر أن يتعهـد والده بضمان إنفاقه لهذا المبلغ أو تقديمه لك كل شهر .. مع التأكيد له بأن ذلك لن يؤثر على خططه للإثراء وتحـقيق الطمـوحات والمشـروعات ، وإن كنت مـا زلت أعجب ممَـنْ يحرم نفسـه وأبناءه وزوجتـه من ضرورات اليوم لحساب « رفاهية » مـؤجلة غير مضمونة فى الغد .. وقد تجىء وقد لا تجىء وإذا جـاءت فقد تجىء بعد أن تكون الصحة قـد غابت وفقدت النفس قدرتها على الاسـتمتاع بمباهج الحياة .. أو تجىء وقد تشبعت نفوس الأبناء بالمرارة تجاه الأب الذى حرمـهم فى طفولتهم وصبـاهم وربما شبابهم أيضاً من بهجة الحيـاة ، فلما أصابوا الثـراء فى شيخوخـته لم يحملهم ذلك على تغييـر نظرتهم إليه ولم يشفع له عندهم فى اكتساب مودتهم ومشاعـرهم التى أفسدتها مرارة الحرمان سنوات طوالاً .

إن العقل يقول لنا إن الإنسان ليـس مطالباً بأن يحرم يومه مـثل هذا الحرمـان القاسى لحـساب غـده الذى قد يجىء وقـد لا يجىء وأنه يسـتطيع ما دام قـادراً أن يحيـا حيـاة كريمـة معتدلة بغير أن يؤثر ذلك على خططه للمستقبل إذا كان مقدراً

له من الأصـل أن يكون ذات يوم من أهل الـثـراء ولم يـكن من الواهمـيـن الحـالمين الذين يجـرون وراء سـراب حلم الإثراء الواسع بغير قدرات ولا مؤهلات ترشحهم له .

والحق أنه تحيـرنى دائما قدرة الإنسـان على خداع النفس والغيـر وعلى استـخدام المبـررات النبيلـة فى تبرير الأفـعال والتصرفـات الشائنة وهى سمة ينفرد بها الإنسـان دون بقية الكائنات التـى لا تخـفى رغـبـاتهـا وغـرائزها .. ولا تحـاول تجميلهـا وإلباسها ثوب الفضائل والنبل .. فـزوجك يا سيدتى يحرم أطفاله من المصروف ـ بخلاً وشحاً وتقتيراً عليهم ـ لكنه لا يعترف بذلك لنفسه ولا لك وإنما يبرره برغبة نبيلة وهدف تربوى سـام هو أن يحـميـهم من خطر الانحـراف الأخـلاقى ! ويغـيب عنه فى نفس الوقت أن من الوسـائل التربوية أيضـاً التى تبنى شخـصية الطفل وتساعـده على استقلالية الـتفكير والتـصرف أن يتـعود مـنذ الصغـر على التـعامل مع النقـود وشراء احتياجاته بنفسـه وحساب تكلفتها وموازنة دخله من المصروف مع إنفاقه على متطلباته الصغيرة !

وزوجك يحرم نفسه وزوجته وأطفاله من كل أنواع الفاكهة والحلوى فلا يعترف لكم بأنه إنما يفعل ذلك ـ شحاً وتقتيراً ـ لكى تزداد مدخراته على حساب حـرمان أطفاله مما تهفو إليه نفـوسهم ، وإنمـا يبرره بالحـرص على صـحـة أفراد أسـرتـه وسلامة أسنانهم !

وهكذا يتواصل خـداع النفس والغير إلى مـا لا نهاية ، وإذا كنت قد افتقدت فى رسالتك تـبريره « النبيل » لحرمان أسرته وهو الرجل القـادر من أطايب الطعام طوال أيام الأسـبوع إلى

أن يجىء يوم الغداء العــالمى كل جمعة ، فلن يكون غـريباً أن يبرر لكم ذلك أيضاً بحرصه على رشــاقة أجسام أفراد الأسرة وحمايتها من أضرار السمنة !

والكارثة ليـست فقط فى أن يرضى هذا الأسـتاذ الجـامعى صاحب المشـروعات والطموحـات لأسرته بمثل هذا الحـرمان القاسى من ضرورات الحياة ، لكنها أيضاً فى هذه الحمى التى تنتـاب البعض للإثراء والرغـبة فى التـحول بقـدرة قادر إلى أصحاب مـلايين ولو أضاعوا فى سبـيل ذلك أسرهم وأبناءهم وأهانوهم بالحياة الجافة المحـرومة وأهانوا أنفسهم فى أعين أبنائهم وشـركاء حـياتهـم والأهل الأقربين . ولكل إنسـان أن يضع نفسه حـيث يراها جديرة بأن تكون . وعطاء المرء القادر لأسرته وأبنائه وزوجـته إنما يكون على قدر اعتـزازه بنفسه وإحساسه بجدارته وليس فقط على قدر إعزازه لهم .

ولقـد قيل قـديمـاً لرجل : لنا عندك حـويجـة « أى حاجـة صغـيرة » فأجابهم الرجل من فـوره : إذن فاسألوا لها رجـيلاً « تصـغـيـر رجل » لأنه يرى نـفـســه أحق بأن تطـلب منه الحاجات الكبيرة وليس سفاسف الأمور الصغيرة!

ولن أقـول بدورى لزوجك الأسـتاذ الجـامـعى إن لنا لديه « حويـجة » هى أن يعطى أبناءه الصـغار مـصروفـاً معـتدلاً ويخـصص لزوجتـه أو لأسرته مـبلغاً عـادلاً يلبى به مطالب حياتــها بطريقة كريمـة تشعر الزوجة والأبناء باعـتزازه بهم ورعـايته لـهم وحدبه عليـهم ، وإنما سـأقـول له إن لنا لديك حاجـة لا تطلب إلا من الرجال وهى أن ترعى أسـرتك وأبناءك وزوجتك بما يليق بك وبمركـزك العلمى ووضعك الاجـتماعى

والمادى لأن مـال الدنيا كـله لن يعوضك عن تحـول مـشاعـر زوجـتك وأبنائك عنـك وخـاصـة بعـد أن يشـبـوا عن الطوق ويتفهموا حقائق الحـياة ويتمردوا على الأب الذى يحرمهم مما يتمـتع به غيـرهم فى نفس ظروفـهم الاجتـماعيـة ، وفى هذه الحالة فلسـوف تنفق المال الذى تضن به عليـهم الآن كارهاً أو راغماً لكنك ستنفقه تحت ضغط الأبناء بغير أن يكون لعطائك لهم مردود عطاء الأب للأبناء الذى يتألف قلوبهـم .. ويجمعهم حوله ويزيدهم حباً له .

فـاختـر لنفـسك مـا تشـاء يا سـيدى فلك ـ قـبل كل أفـراد أسرتك ـ ما سـوف تختاره لنفسك ، تدفعـهم إليه مَنْ تنكرهم لك فى المستقبل المنظور .

روعــــة الحيـــاة !

أنا سيدة عمرى ٣٩ عاماً جميلة ومثقفة تزوجت منذ ١٥ عاماً من زميل لى بالعمل بعد قصة حب استمرت ٨ سنوات ، وأنجبت منه طفلتين هما قرة عينى ، وما دفعنى إلى الكتابة إليك هو إحساسى بالمسئولية تجاه غيرى ممن أعفاهم ربهم من معاناة التجربة التى كابدتها ، فرأيت من واجبى أن ألفت أنظارهم إلى أشياء كثيرة فى الحياة يجدر بهم الاهتمام بها وتقديرها حق قدرها .

فمنذ ثلاث سنوات اكتشفت إصابتى بالمرض الخطير ، ولن أصف لك ما شعرت به من الرعب والخوف لهذه المفاجأة .. ونمت ليلتى تلك بين طفلتى كأنما احتمى بهما مما أتوجس منه وأريد أن أشعر بالشبع منهما وأشعرهما به ، وبعد مداولات طويلة بين الأطباء قررت السفر للخارج لإجراء جراحة .. وأجريتها هناك بنجاح وعدت لحياتى وزوجى وطفلتى .. لكنه بعد عام آخر ظهرت نفس الأعراض وسافرت مع زوجى لإجراء جراحة ثانية وودعت الطفلتين وأهلى هذه المرة وداع مَنْ يخشى ألا يراهم ثانية ، وتمت الجراحة وكشفت عما كنت أخشاه لكنى تقبلت الأمر صامتة وساهمة .. وفى اليوم التالى للجراحة وكنت راقدة فى فراشى

بالمستشفى أنظر إلى النافذة التى بجوارى حين تردد هذا السؤال فجأة فى أعماقى : ماذا لو أخبرنى الطبيب بأن ما تبقى لى من عمر ليس سوى شهر أو شهور قليلة ؟

وما الذى أبدأ بعمله فى هذه الحالة !.. والأطباء الأجانب كما تعرف لا يخفون هذه الأمور عن مرضاهم ؟ وتأملت حالى وحياتى السابقة وتساءلت : ما هذا المظهر الأوروبى الذى يتسم به مظهرى وما هذا الشعر المكشوف وماذا عن علاقتى بزوجى ومناطحتى المستمرة له فى السابق ، وإلى أين يقودنى ذلك إلا إلى الجحيم ؟

ثم ماذا لو كان الخطر قد زال عنى نهائياً ولم يعد هناك ما يدعو للخوف والتوجس .. هل أرجع إلى حياتى الماضية وأواصلها كما كانت بأخطائها وعثراتها ؟ إن صديقاتى يصفننى بالشهامة وبأننى أقدر الجميل ولا أنساه لفاعله وأقف إلى جوار الحق .. فهل أنسى « الجميل » لربى إذا أعفانى من الخطر وأرجع لحياتى السابقة ؟.

وقبل أن أعرف نتائج الجراحة كنت قد قررت أن الوقت قد حان لمراجعة حياتى كلها ولقطف ثمرة هذه المحنة فى طاعة الله وجاءنى الطبيب وأبلغنى بزوال الخطر وبأننى أستطيع أن أواصل حياتى الطبيعية دون خوف ، وابتهجت بذلك كثيراً .. وتذكرت دينى لربى بالوفاء له بالعهد .. فكان قرارى الأول هو أن غادرت المستشفى الأجنبى الذى دخلته بملابس أوروبية « بالحجاب » ورجعت إلى بيتى وبناتى وأنا على قيد الحياة واعتبر كل يوم من عمرى صدقة منحها الله لى بفضله وكرمه وأرجوه أن يطيل فى حياتى لكى أربى بنتىّ على طاعته .

وأصـبحـت أقدر الحـيـاة حق قدرهـا ووضعت مـشـاكلى فى حجمـها الطبيعى ، ورأيت أننى ما دمت بين بنتىّ وأسـتطيع خدمة نفسى بنفسى ، فهذه هى السعادة التامة.

وأنه من الجحود لـنعمة الله ألا يرضى الإنسان بحيـاته بسبب ما يعانيـه من قلة الرزق أو عدم التوفيق فى الحيـاة الزوجية ، إذ ماذا تعنى مثل هذه المشاكل بالقـياس إلى محنة كمحنة هذا المرض الخطير .. وهل لابد أن نبـتلى بالمرض لكى نعرف ونقـدر ما نحن فيه من سعادة ؟.

لقـد راجعت حسـاباتى بعـد أن استـقرت حالتـى ووجدت أن حيـاتى قد تغـيرت إلى الأفـضل وأن علاقـتى بكل من حولـى قد تحسنت وأنـنى قد سعـدت بالسلام النفـسى والثقـة بالله والرضا بقضـائه وقدره وأدركت أن لى ثروة من الأهل والأحـباب ، الذين غمـرونى بمشاعرهم وأفضـالهم خلال محنتى ، ولا يتـسع المجال هنا للإشـادة بما قـدمـوه لى ولزوجى فى الداخل والخـارج ، ولو فعلت لاحتـجت إلى صفحات وصـفحات أتحدث فيـها عن صديق زوجى الذى بادر بالاتصـال بالمسـتـشفى الأجـنبى دون طلب منا وحجز لنا تذكرتين للسفر وصمم على أن نقيم فى شقة صديق له بالعاصمة الأوروبية لمتابعـة العلاج بعد الجراحة ، أو هذا المصرى الذى يقيم هناك ولم نكن نعـرفه من قبل وأصـر على أن نقيم فى بيته الصغيـر مع أسرته ، او هذا الرجل الصالح العالم الذى أتبرك به وزوجـته الـفاضلة واللذيـن يتصـلان بى يومـياً داعـيـين لى بالشـفـاء.. أو هذا الرجل صـديق أبـى الذى أراد أن يخـفف عنى فأهدانى كتاب « سيـدات بيت النبوة » لأطلع على ابتلائهن أو هذه الصديـقة التى كانت قـد انقطعت عنى وعلمت بمحنتى ، فـاتصلت

بصديقة لنا تستأذن فى السؤال عنى ، أو هاتين الصديقتين اللتين كانت أخـبارهمـا قد انقطعت عنى، فـإذا بهمـا تظهران فـجأة لكى تخـفـفـا عنى ، ناهيك عن مـوقف أخـتى وأبى يرحـمـه الله وأمى وإيمانها العميق ودعائها المستمر لى .

لقد وقف الجميع معى بالدعاء والتـثبيت والتشجيع وأحاطونى بحبهم ورعايتهم .. فكيف أشكو .. ولا أشكر .

وكـيف اعتـبر مـا تعرضت له ابتـلاء وقد كـان فضـلاً من الله ونعمة وتذكيراً لى بما أنعم علىّ به ربى ؟.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يبدو أننا نحـتـاج بالفعل لـمَنْ يذكرنا بـقيمة الحيـاة لكيلا تستغرقنا مشاكلنا الصغيرة وصراعاتنا التافهة ، فتشغلنا فى بعض الأحيان عن إدراك قيمة الحياة وتقديرها حق قدرها .

ومن المفارقـات الإنسانيـة القديمـة إننا قد لا ندرك أحـياناً قيـمة مـا يحيط بنا من أسـباب للسعـادة والرضا والابتـهاج بالحيـاة إلا ونحن نتسمع أنغام الـرحيل الحزينة فنهتف كـما هتـفت الجـدة العـجوز فى رواية « عـالم صـوفـيـا » للكاتب النرويجى يوستن جاردر حـين انبأها الطبيب بمرضـها مرض الموت : الآن فقط أدرك روعة الحياة وجمالها !

ولقد تسـاءلت الطفلة صوفيـا فى هذه الرواية الفلسفـية : أليس من الظلم أن يموت الإنسان ؟ ثم راحت تتأمل الفكرة فما أن تقبلتهـا وسلمت بها حتى أدركت أكثـر من أى وقت مضى : أية نعمـة كبرى تنعم بهـا وهى تتردد فيـها أنفاس الحـيـاة ، وأدركت هى أن الحـيـاة تحـيل إلى الموت .. والموت يحـيل إلى الحيـاة وأننا لا نستطيع أن نشـعر بقيـمة الحيـاة إن لم نفكر

أيضـاً فى أننا سنمـوت ذات يوم لأننـا لا نملك حـين نفكر فى الموت إلا أن نشعـر بروعة المعجزة الأخرى الخـارقة وهى أننا ننعم بالحياة !

ولقد أحلت يا سيدتى محنتك المرضية و « فكرة الموت » إلى دافع جديد للحـياة بطريقة أفضل . وأدركت « روعـة الحياة » والعمر ممتد أمامك بإذن الله لكى تحـققى خلال رحلة العمر ما تنبهت إليـه خلال مراجعـتك لحياتك السابقـة ، وتنهضى إلى الطاعات وتسـتثمـرى حياتك في تحـقيق السـعادة لك ولـمَنْ حولك .. وفى إضاءة عـالمك الصغير بالمثاليـات والقيم الدينية والأخلاقية والعـلاقات الإنسانية النبيلة ، مستفـيدة من عبرة المحنة فى الالتفات إلى الأشياء الجـديرة حقاً باهتمام الإنسان وسعيه إليها .. وفى التـغاضى عما لا يستحق العناء من أجله أو الوقـوف أمامـه بلا طائل من صـغـائر الحيـاة ، فكأنما قـد أضفت إلى عمرك وخبرتك بالحياة عمراً آخر أو أكثر وتعاملت مع الحيـاة والوجود بمنطق أرقى من منطق البحـارة القدامى الذين يقول عنهم المثل الإنجليزى إنهم لا يعرفون الله إلا ساعة الغرق . ومَنْ يعرف الله فى غيـر أوقات المحن يجده إلى جواره يجيب دعوة الداعى إذا دعاه فى كل الأوقات ، ويحظى بالحياة الآمنة ، وبالسلام النفسى فى ظلال طاعتـه .. ويشعر بجدوى حيـاته وقيمتـها وهو يطبق ذلك النهج البسيط الحكيم الذى يحـقق التوازن المطلوب بين الاحـتفـاء بالحيـاة والاسـتعداد للرحـيل الأبدى ، الذى نصـحنا به إمـام المتـقين على بن أبى طالب : اعـمل لدنياك كـأنك تعيش أبداً واعـمل لآخرتك كـأنك تموت غدا .

فثقى بربك ونفسك ويومك وغدك يا سيدتى ، واستمتعى بحياة فاضلة مديدة بإذن الله .. وترجمى شكرك لربك على ما أنعم به عليك من نعم بتنشئة طفلتيك على طاعته والالتزام بحدوده والإيمان بخيرية الحياة .

وشكراً لك على رسالتك هذه التى تذكرنا بما قد تشغلنا عنه فى بعض الأحيان شواغل الحياة وأمواجها المتلاطمة !

شهوة الانتقام!

أكتب إليك هذه الرسالة لأروى لك عن المشكلة المؤلمة التى أعيشها يومياً .. فأنا مدرسة أطفال فى مدرسة ابتدائية ، وأحب أطفالى كثيراً ، ولكننى أرى الألم والمرارة التى ترتسم على وجوه مجموعة من هؤلاء الأطفال الذين انفصل آباؤهم وأمهاتهم بالطلاق، وأصبحوا فى حضانة الأم .. إذ أرى أمامى حرباً شعواء تشنها الأمهات ، لا أقول على الآباء ولكن على الأبناء ، فالأم تبذل قصارى جهدها حتى لا يرى الأبناء آباءهم ، والأب يجاهد لكى يرى أبناءه بكل الطرق الودية التى لا تضر بنفسية الصغار ، ولكن الأم وللعجب الشديد لا تهتم بنفسية هؤلاء الصغار ولا تكترث بعذاباتهم فى سبيل شفاء غلها الشخصى من الأب ..

وهنا يلجأ الأب إلينا فى المدرسة ليرى أبناءه خلسة من الأم ، فأرى فى وجوه هؤلاء الصغار السعادة والبهجة واللهفة لرؤية أبيهم المحرومين منه بفرمان الأم .. وأجد الأب يفيض عليهم بالعطف والحنان الذين هم فى أمس الحاجة إليه ، وأسمع بينهم حواراً ينفطر له قلبى .

« عايزين يا بابا نتفسح معاك زى أصحابنا » فيرد الأب «ياريت يا ولاد .. خذوا إذن ماما وبلغونى ، وأنا أعدى عليكم

أفـسحكم » ، فـيـرد الأطفـال بأسى شديد « مـامـا لا ترضى أن نشـوفك أو نكلمك فى التليفـون » ، فـيـحتـار الأب فى الجـواب ول يجد ما يرد بـه على أطفاله سوى الدموع !! ناهيك عـما ذكره الصغار مما لقنته لهم الأم من أقوال مسمومة عن أبيهم ..

وعندما تعلم الأم برؤية الصغار أبيـهم فى المدرسة، فإنها تأتى إلينا ، وهى تتميز غيظاً لفشل حظها فى حرمان الصغار من أبيهم، وتدخل معنا فى نـقاش حاد لسـماحنا بذلك .. وقد حـاولت مراراً وتكراراً أنا والاخصائية الاجتماعية أن نجلس مع الأم انوضح لها مدى الضرر النفسى الذى يعانيه هؤلاء الأطفال وكيف أنه ينعكس عليـهم فى عنفـهم مع أقـرانهم ، وفى تخلفـهم الدراسى الراضح وحـزنهم المسـتـمـر .. إلا أن الأم وللعـجب الشـديد مـرة أخـرى لا يعنيها ذلك من قريب أو بعيد ، وإنما تسترسل فى سرد ما فعله هذا الزوج معـها فى سالف الأيام ، وكيف أنه كـان وكان وكان .. وينتهى الحوار بيننا بغـير أن تهتز للأم شعـرة واحدة لما سردناه عليـها من مـعـاناة أبنائهـا ! حتى لو لـم يتفق الأب والأم كـزوج وزوجة ووقع بينهـما ما صنع الحـداد ، فما ذنب الصـغار فى أن تستخدمهم الزوجة غالباً كأداة حرب ضد هذا الزوج ؟..

وعلى الجـانب الآخر ، فـإننى أرى آباء وأمـهات انفـصلوا عن بعضـهم البعض لكنهم يضعون مـصلحة الأولاد فوق اعتـباراتهم الشخصية ، فالأم الحاضنة لا تقول للأولاد عن أبيهم إلا كل خير.. وكذلك الأب ، كـما أن الأم تسـمح للصغـار بأن يرتووا من حنان الأب وعطائه فـينشأون فى اتزان نـفسى وعـاطفى بالرغم من أن الأبوين قد حدث بينهما من المشاكل ما أدى إلى الطلاق .

ومن خبرتى مع هؤلاء الأمهات من النوع الأول، فإنه لن تجدى

معهن الدعـوة بالحسنى لحثهن على الرحمـة بأبنائهن لذلك أرجو أن تتبنوا هذه القضـية التى تمس قطاعـاً عريضـاً من صغـارنا ، بالتـوجـه لأولى الأمـر وواضعى الـقوانيـن أن يكونوا أرحم على هؤلاء الصغار من أمـهاتهم اللاتى أعمتهن الرغبـة فى الانتقام من الأب عن رؤية مصلحة الصغار ، إذ يجب وضع قانون يعطى الأب حق مصاحبة أطفاله (ولا أقول مجرد رؤيتهم) يومين على الأقل أسبـوعيـاً حتى يحـصل الأطفال على الاتزان الـنفسى والإشـباع العـاطفى الـذى يجـعل منهم رجـالاً ونسـاءً أسـوياء بدلاً من أن ينشأوا وهم يعانون الاضطرابات النفسيـة ما يتعذبون به ويتعذب به المجتمع معهم .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض الأمـهـات الحـاضنات ، وكـذلك بـعض الآباء الذين ينفردون برعاية الصغار دون أمهـاتهم ، يتعاملون مع شركاء الحيـاة السابقين بمنطق الـعبارة القـديمة للشاعـر الأغريقى هوميروس التى تقول : الانتقام أشهى من العسل !

والمؤسف حقاً هو أنهم فى استغراقهم فى شهوة الانتقام من شركاء الحياة السابقين ينسون ، عامدين أو غافلين ، مصلحة هؤلاء الصغار الذين ينفذون من خلالهم انتقامهم الخسيس من شـركـائهم السـابقـين .. ولا يتـوقـفـون لحـظة عن طلب هذا « العسل الشهى » بغض النظـر عن أثره السام على معنويات الأبناء وتكوينهم النفسـى فكأنما ينتقمون من الحـياة ، وليس من شـركائهم السـابقين بـتقـديم المزيد إليهـا من الأشخـاص المرشحين للانحراف السلوكى أو النفسى فى قادم الأيام .

فهل تستـحق شهوة الانتقام هذا الثمن البـاهظ الذى يدفعه

الصــغار من ســعادتهم وتكوينهم النفـسى وشخـصيـاتهم .. ويدفعه المجـتمع فيمـا بعد من معاناته مع غـير الأسوياء من أفراده ؟

إن رسـالتك تثـير قـضيـة مـؤلمة .. والأكـثر إيلامـاً هو أن ما نحتاج إلى قانون لتنظيـمه هو حق مصاحبة الأبناء وليس فقط رؤيـتهم . ولقد كـان يكفى لإقراره فـقط الفطرة السليـمة لدى الأمهات والآباء والرغـبة المشتركة فـى خير الأبناء بغض النظر عن تـاريخ الصـراع السـابـق بين الفـريقــين .. فكيف تتراجع الفطرة السلـيمة .. التى أودعهـا الله سبحـانه وتعالى قلوب الأمهات والآباء .. أمام هذا الحاجز الشيطانى من الرغبة الضارية فى الانتقام من الآخرين إلى هذا الحد ؟ .

أبواب الجحيم

أشعر بحرج شديد وأنا أكتب لك هذه الرسالة ، لكنى أحتاج بشدة إلى مشورتك فى أمر لا أستطيع أن أستشير فيه مَنْ هم حولى من الأهل والأصدقاء .. فأنا رجل تخطيت الستين من العمر ببضع سنوات .. وأعمل عملاً مهنياً خاصاً يوفر لى مستوى كريماً من الحياة .. وقد بدأت رحلتى فى الحياة العملية عقب تخرجى فى كلية مرموقة .. فعملت خارج مصر بضع سنوات ، وراسلت خلال عملى إحدى الجامعات الغربية للدراسة بها .. وسافرت إليها للحصول على الدبلوما وحصلت عليها فى زمن قياسى ، وخلال وجودى فى تلك الدولة الغربية تعرفت على فتاة عربية تعيش مع أسرتها هناك ، وشعرت بالانجذاب إليها، فتقدمت للارتباط بها بالرغم من الفوارق الاجتماعية والثقافية بيننا ، إذ كانت من أسرة بسيطة اجتماعياً ، ولم تحصل على أى شهادة .. لكنى سعدت بها وأليت على نفسى أن أعلمها كيف تتكلم .. وكيف تتصرف فى المجتمعات الراقية .. إلخ .

وكانت تستجيب لإرشاداتى لها وتلتقط خبرة التعامل والتصرف سريعاً ، ورجعت إلى بلدى واستقررت به لفترة ، ثم رحلت إلى دولة خليجية للعمل هناك فى مجال حر وأمضيت

عامين حققت خلالهما قدراً لا بأس به من النجاح .. وعدت إلى مصر وبدأت نشاطى المهنى فى بلدى .. واستقرت بى الحياة فيها.. وأنجبت من زوجتى هذه ولدين تقدما فى مراحل التعليم .. وحققت فى عملى نجاحاً كبيراً ، وانتقلت بأسرتى إلى شقة فاخرة.. واشتريت شقة جميلة فى المصيف . واكتملت لى ولزوجتى كل أسباب السعادة .. ورضيت عن حياتى معها، فهى دائما لطيفة وجذابة ومجاملة .. وملبية لكل احتياجاتى ، وتشبعنى عاطفياً وحسياً ، وأنا لا أبخل عليها بشىء وأوفر لها كل أسباب الحياة المريحة .. واصطحبها فى الصيف فى رحلتى الخارجية إلى أوروبا .. وأقدمها للمجتمعات الراقية .. وأزور معها بيوت الأهل والإخوة والأصدقاء ، فتستقبل منهم بحفاوة شديدة وتحقق لديهم رصيداً فورياً من الحب والإعجاب برقتها وخفه ظلها وروحها المجاملة للجميع بلا استثناء ، كما أغدقت عليها بالمال والهدايا والملابس الفاخرة .. إلى حد أننى كنت أشعر أحياناً بالحرج من ارتدائها للفرو الثمين الذى لا تملك مثله شقيقاتى ، وبصفة عامة ، فلقد كانت الحياة معها سعيدة وجميلة .. ولا وجه للشكوى منها .. اللهم إلا فى بعض المرات التى لاحظت عليها فيها بعض التصرفات غير اللائقة ، فكنت أعاتبها فيها ، فتدافع عن نفسها وتنكرها فى البداية ثم لا تلبث تحت الضغط عليها أن تقر بها وتعتذر عنها وتعدنى بعدم تكرارها ، كميلها للتبسط الزائد على الحد أحياناً مع بعض أصدقائى ، أو خروجها وحدها خلال سفرى فى أعمالى وتأخرها عن العودة للبيت .. إلخ . أو لجوئها للكذب فى مواقف كثيرة تجنباً للومى وعتابى .. إلخ ، وكنت أعزى هذه التصرفات الصبيانية إلى نشأتها فى الغربة فى وسط عائلى واجتماعى

بسيط وأتجاوز عنها بعد اعتذاراتها عنها وملاطفتها لى لكى أصفح عما حدث ، ونواصل حياتنا بسلام ..

ثم تكررت هذه التصرفات الصبيانية فى السنوات الأخيرة وكثرت وبدأت أشعر بالقلق تجاهها .. وأحاول طمأنة نفسى بأن الولدين قد كبرا ودخلا دور الشباب ، ولابد أن تحترم أمهما وجودهما فى حياتها ، وتكف عن مثل هذه الصغائر ، إلى أن جاء الصيف وسافرت بأسرتى إلى المصيف وأمضيت معها بضعة أيام من السعادة الخالصة ، ثم تركت الأسرة فى المصيف لقضاء شهرى يوليو وأغسطس ورجعت إلى القاهرة لممارسة عملى .. فلم تمض سوى أيام حتى فوجئت بابنى الشابين يأتيان إلىّ فى القاهرة بمفردهما مضطربين وشاحبى الوجه وينفردان بى بالمسكن ثم يرويان لى وهما يرتجفان أنهما قد تأكدا بالملاحظة والمراقبة أن أمهما تتردد خلسة على مسكن جار أعزب لنا فى عمارة المصيف ، وأنهما حاولا أن يكذبا عينيهما دون طائل ، بعد أن راقباها أكثر من مرة .. ولاحظا عليها كثرة المكالمات التليفونية المريبة .. والهمس المتكرر بينها وبين شغالة الأسرة ، التى تجمعها بها صداقة غريبة تثير التساؤلات ، فلم يجدا ما يفعلانه بعد أن ضاقت بهما السبل سوى تركها فى المصيف ووضع الأمر بين يدى .. وصعقت لما سمعته من الابنين .. وشعرت بالدم ينسحب من عروقى .. لكنى حاولت على الرغم من ذلك أن أهدىء من روعهما بقدر الإمكان وطلبت منهما البقاء فى القاهرة ، ثم نهضت وارتديت ملابسى وركبت السيارة إلى المصيف وبلغته فى العاشرة مساء ودخلت شقتنا ، فلم أجد لزوجتى أثراً .. وسألت عنها الشغالة ، فارتبكت ولم تجد جواباً . فصعدت للدور العلوى

الذى تسكن به أسـرة صـديقة لنا عـسى أن تكون فى زيارتـهـا ، فقـابلنى رب الأسرة وأبلغنى أن زوجـتـه وأبناءه فى القـاهرة منذ أيام وهو يقيم بالمسكن وحـيداً ولم تأت زوجتى إليـه بالطبع لعدم وجـود زوجتـه . فلم يبق سوى الشـقة الأخـرى فى الدور الأعلى التى يقيم فيها ذلك الجار وحيداً ، وفكرت فى أن أطرق عليه الباب وأسأله عن زوجتى ، لكنى تراجعت عن ذلك على أمل أن تكون فى مكان آخر، فأوفر على نفسى الموقف الحـرج والفضيحة المدوية .. ورجعت إلى شـقتى، فـأخرجت مقـعداً وجلست أمام بابـها أنتظر لأرى هل ستأتى من أسفل فتكون خارج العمارة كلها ، أم ستهبط من أعلى فتصدق الظنون ويتأكد الاتهام .. ومضت الساعات ثقيلة إلى أن سمعت صوت خطوات تقترب فـى الثانية والنصف صباحاً وتعلق أملى اليـأس بأن تكون قـادمة من أسـفل .. فإذا بالزوجـة المصـون أم الشـابين اللذين يدرسـان بالجامـعـة تهـبط من أعلى وترانى فى موضعى، فتصاب بالذهول للحظات .. ثم تحـاول تمالك نفسـها على الفـور وتفتعل المرح والدهشة لعودتى غيـر المتوقعة .. وأمسك بيدها وأسحبهـا إلى داخل الشقة وأسألها : أين كنت حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟..

فتـجيب فى غـير اضطراب أنهـا كانت فى زيارة الأسـرة التى تسكن فـوقنا .. وكيف أن ربة هذه الأسـرة قد تمسكت بهـا طوال السهرة لكى تسليها فى غياب زوجها !!

ولم أتمالك نفسى حين سمعت ذلك وانهلت عليها ضرباً وركلاً، وطلع علـينا النهـار ونـحن على هذه الحـال ، ووصـل الابنان من القاهرة، فظللت ثلاثة أيام عصيبة استـجوبها عما حدث واسترجع كل العـلامـات المريبـة التى كنت ألاحظهـا فى السنوات السـابقـة

وأخذها لسوء الحظ على محمل سليم ، وسعدنا أنا وأبنائى إلى مسكن ذلك الجار الأعزب . وأوجعناه ضرباً .. فلم يجرؤ على أن يشكونا إلى الشرطة .

وانتهى الاستجواب بأن اعترفت بأنها كانت بالفعل فى مسكن هذا الجار لكن « شيئاً » لم يحدث بينهما ، وإنما جلسا فى الشرفة يتبادلان الأحاديث البريئة حتى ذلك الوقت المتأخر !!

وحزمت أمرى، فاتصلت بأسرتها فى المهجر البعيد وطلبت منها إرسال تذكرة السفر لابنتهم لأننى سأعيدها لهم ، ولن أدفع لها حتى ثمن التذكرة ، وفوجئت بها تقول لى فى بساطة : ولماذا أطلب منها السفر وقد اعترفت بخطئها وانتهى الأمر ؟!.. وأجبتها لما ينبغى لمثلها أن تعرفه وهو أنها أم غير أمينة على شرف زوجها وأبنائها وأن وجودها خطر على معنويات هؤلاء الأبناء وأخلاقياتهم .

وسافرت إلى أهلها وهى تأمل فى العودة فى أقرب وقت بعد هدوء العاصفة ، وراح ابنى الأكبر وهو شاب مستقيم وعاقل يستجوب الشغالة عن كل شىء من أمر أمه وأمرها معها خلال السنوات الماضية ، فإذا بها تفتح علينا أبواب الجحيم .. وتكشف لنا عن أهوال تقشعر لها الأبدان ، فتروى عنها العديد من « المغامرات » التى كانت طرفاً فيها أو أطلعتها عليها سيدتها أو طلبت مساعدتها فى التستر عليها ، وإذا بى اكتشف أن السيدة التى أغدقت عليها الحب والعطاء ورفعتها إلى مستوى اجتماعى لم تكن تحلم به كانت طوال سنوات ماضية تعبث بشرفى .. وتخوض مغامرات حقيرة لا تفرق فيها بين شاب فى الثامنة والعشرين من عمره وبين رجل مسن فوق السبعين من عمره ،

وإذا بهذه الشغالة اللعينة تعترف بعلمـها بثمانى علاقات لزوجتى المصون مع رجـال مختلفـين فى القاهرة والإسكندرية ، بعـضهم تعرفت عليهم خـلال رحلة السيارة ومعها الشـغالة إلى المصيف ، وتبادلت معهم أرقام التليفونات .

وأنهرت رغم محاولتى التماسك أمـام ابنىّ .. ووجدت التفسير لبـعض الأحداث المحـيـرة خلال رحلة حـيـاتى مع هذه السيـدة ، وتذكـرت يوم التـقيت بصـديق حـمـيم لى فى محـل عام ومـعى زوجـتى .. وكيف لاحظت بعـد قليل اضطرابه وعـلامات الدهشـة والاسـتنكار تعلو وجهـه وهو ينظر فى اتجـاه زوجتى .. وكـيف شككت وقتها فى أنها كانت تشـير إليه من وراء ظهرى أو تغمز له بعـينهـا ، ولم أجد دليـلاً على ذلك وخـاصة أن هـذا الصديق قـد قاطعنا عائلياً بعدها ولم يعد يظهر فى مناسباتنا .

كمـا تذكرت أيضـاً كيف كنت أجلس مع صديـق آخر وكل منا معـه زوجته نتناول طعـام العشاء ، فـإذا بهذا الصـديق بعد قليل يصيح فى زوجتـه طالباً منها الكف عن ركل سـاقه أسفل المائدة ، وإذا بزوجته تنفى بشدة أنها فعلت ذلك !

وتذكرت .. وتذكـرت .. وتذكرت .. وعـجبت كيـف رضيت لى هذه السيدة بكل هذا الهوان ، وأنا الذى أخلصت لها الحب وأجزلت لهـا العطاء وأحـسنت مـعـاملتهـا على مـر السنين .. مـاذا كـان ينقصها.. وقد كانت ملبية دائماً لندائى وتبدو سعيدة بحياتها معى ومبتـهجة دائماً .. وتكـره النكد ولا تكف عن الضحك وإثارة المرح فى حياتنا.

لقد طلـقتهـا وأنا حزين على نفـسى .. وأتساءل : كيـف تخفى السعادة وراءها كل هذا الجحيم ؟

وفوجئت عقب طلاقى لها بلـوم الأهل وكثيرين من المعارف لى على طلاقها ، وقد كانت كمـا بدت لهم دائماً السيدة الودود المحبة لزوجهـا وأبنائها والمجـاملة لأهله ومعارفـه .. واللطيفـة دوماً مع الجميع .

وعـقلت لســانى فى فـمى .. فلم أجب عـن هذه التـسـاؤلات المسـتنكرة .. وكيف لـى أن أجيب عنهـا .. هل أقـول لـمَنْ يلومنى إننى قد اكتـشفت لزوجتى السابقة علاقـات شائنة بـ ٨ رجال هم مَنْ اعتـرفت عليهم شغالـتها المخلصة وكـاتمة أسرارها .. وإن الله وحده هو الذى يعلم عدد الآخرين خلال ٢٤ سنة من الزواج ؟

هل أقـول لهم إنهـا كـانت تـغـازل أصـدقـائى وأنا أجلس إلى جوارها ..

وترجع للوراء لكى تغمز لهم بعينها .. أو تمد سـاقها لتركل بها ساق مَنْ ترغب فى مناوشته أسفل المائدة .

هل أقول لهم إننى اصطحبتـها معى فى رحلة إلى إحدى الدول الأوروبية وأقمنا فى فندق صغيـر، فشككت فى أنها تغازل موظف الاستـقبال الذى لا يزيد عـمره على ١٨ عـاماً .. وأنا واقف معـها أمامه ، وأنه كان يبادلها الإشارات المختلسة ؟!

لقد طويت صـدرى على همى وأملت فى أن تندمل جراحى مع الأيام ، وكان أكـثر ما يـثير حـيرتى هو : كيف تنـطوى مثل هذه الشخصـية على هذا التناقض العجـيب بين لطفها معى وحـرصها على إرضائى كزوج وعبثها بشـرفى وامتهانها لكرامتى فى الوقت نفسه ، لقد مضى الآن عامان على هذه الكارثة وما برئت بعد من كل الجراح ، واعترف لك بأننى قد شـعرت بفراغ هائل فى حياتى بعـد رحيلهـا لولا أننى احتـضنت ابنىّ والتـمست لديهـما العـزاء

والتعويض عما لقيته من هذه السيدة ، وهما يرفضانها رفضاً قاطعاً ونهائياً ويزجرانها حين تتصل بهما تليفونياً ويطلبان منها عدم معاودة الاتصال ولا يستجيبان لمحاولاتها لاستعطافهما لكى ترجع إليهما أو تراهما .. ويكدرانها كل مرة بما فعلت بهما وبكرامتهما وسمعتهما ووضعهما أمام أصدقائهما وزملائهما .

وبالرغم من كل ذلك، فإنها لم تيأس بعد .. ومازالت تتصل بنا وتلح ، وفى كل مرة انبهها إلى عدم معاودة الاتصال ، وأبصر ابنىّ بما تمثله من خطر على حياتهما وسمعتهما ومستقبلهما وصورتهما أمام أصهارهما فى المستقبل حين يرتبطان بشريكتى الحياة .. إذا ظهرت أمامهما بمظهرها العابث اللاهى ، وواصلت عبثها ومغامراتها فى المحيط العائلى ، وهما يتفقان معى فى ذلك ، ويغالان فى التمسك برفضها ، غير أن ابنى الأصغر وهو شاب متدين يؤرقه ضميره الدينى بشأن مسألة رفض الأم وقطع كل صلة بها .. ويسألنى ألا يدخل ذلك فى باب قطع الرحم الذى نهانا عنه الله .. وهو أكثر إصراراً من شقيقه على رفض أمه ، لكنه يتساءل : ألا من صيغة لا تعرض الأبناء لغضب ربهم عليهم .. وتحميهم فى نفس الوقت من وجود مثل هذه الأم فى حياتهم ؟

لقد اتفقنا على أن نستشيرك فى ذلك .

أما بالنسبة لى أنا شخصياً .. فإن ابنىّ يملأن حياتى الآن وأشعر بالرضا عن كل شىء فى الدنيا وأنا معهما .. ولكن ماذا عن المستقبل حين يستقلان بحياتهما عنى .. وتخلو الحياة علىّ وحدى وماذا تقول لنا ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

زوجتك السابقة يا سيدى شخصية مريضة بانحراف نفسى خطير يجعل منها بالفعل خطراً داهماً على معنويات

أبنائها وأخلاقياتهم .. فهى ليست مجرد زوجة ضعفت عاطفياً ذات مرة أمـام أحد الرجال، فـتناست واجبـاتها تجاه زوجـها وأبنائهـا وانساقت وراء أهوائهـا ، فطلبت الطلاق من زوجـها لتتزوج ممَنْ أحـبت آملة أن يتجاوز أبناؤها الشبـاب الصدمة بعد حـين ، وتستـعيد عـلاقتـها الأمومـية معـهم ، وإنما هى شخصية سـيكوباتية منحرفة تطلب متعتـها العارضة من أى سبيل ودون الوقـوف أمام أية اعتبارات دينية أو أخـلاقية أو اجتـماعية ، والـشخصيـة السيكوباتية شـخصيـة تبحث عن الإثارة اللحظية والنشوة الفورية .. وقد تتمثل هذه « النشوة» لديها كما حدث مع زوجتك السـابقة فى مجرد التلذذ بالشعور بإحـساس المغـامرة والمخـاطرة والخـوف من انكشاف أمـرها وهى تغـمز لرجـل غريب يجـالس زوجـها .. أو وهى تدعـوه لمغازلتها بركل ساقه خـفية من تحت المائدة ، ومن سمات هذه الشخصية إدمان الكذب وإهدار حقوق الآخرين وكسر القوانين والأعراف الـسائدة وخيـانة أقرب النـاس إليهـا والتعثـر فى الدراسة غالباً .. وتعـدد العلاقات غير المشروعـة فى حياتها ، ومـعـاودة ارتكاب نفس الأخطاء بلا أدنى ندم على التـجـارب السابقة .. ولا أدنى تبصر لعواقبها عليها وعلى مَنْ ترتبط بها حيـاتهم ، فهى شخصـية لا ترد نفسـها عن رغبة وتعـجز عن التحكم فى اندفاعاتها أو نزعاتها شبه القهرية .

ولأنها شخصـية شبه وثنية ، فلا أثر تقريبـاً للقيم الدينية والأخلاقية عليها وليس هناك حدود لما يمكن أن تُقدم عليه من أفعال وتصرفات .

ولا شك فى أنك قـد تأخرت كثـيراً فى اكـتشـاف انحرافـها

الخطير هذا ، والاكتشاف المتأخر للمرض يضعف الأمل فى الشفاء إذا كان ثمة شفاء لمثل هذه الحالة .. إذ لا يشعر المنحرف فيها بالندم غالباً على ما يفعل ، وإن شعر به فى بعض الأحيان ، فلفترة مؤقتة ثم يستجيب بعدها لنوازعه ورغباته من جديد ، وقد يكون ندمه فى أحيان أخرى على «انكشاف أمره» وليس على ما ارتكب من خطايا وأخطاء أدت به إلى هذا الوضع .. فكأن ندمه فى هذه الحالة هو «ندم مهنى» على عدم إجادة «الصنعة» بحيث لا تنكشف الأخطاء وليس على اختيار الطريق الخاطىء أصلاً فى الحياة .

فأما التناقض الذى تتعجب له بين عبث هذه السيدة بشرفك وبين إسعادها لك وتلبيتها لندائك وابتهاجها بالحياة معك طوال سنوات الرحلة ، فلأن الشخصية السيكوباتية نوعان : نوع شرس مصادم للآخرين يكسر القوانين والأعراف بشكل ظاهر ويسميه علماء النفس بالسيكوباتى الغبى .. ونوع آخر ناعم يتوسل إلى تحقيق رغباته بالذكاء والدماثة الظاهرية .. ورقة التعامل مع الآخرين وبإجادة فن الإقناع على الرغم من كذبه الدائم ويسميه علماء النفس بالسيكوباتى المبدع .. وكلاهما شخصية مضادة للمجتمع ولا عهد لها ولا وفاء .. ولا شفاء أيضاً من أدرانها إلا بالعلاج الطويل المرهق الذى لا يؤتى ثماره إلا إذا توافرت الرغبة الصادقة لدى السيكوباتى فى الشفاء وهو ما لا يتحقق إلا نادراً .

وفى حالة زوجتك السابقة بالذات، فإن من تتملكها مثل هذه الرغبة العارمة فى الاستمتاع بمتع الحياة بلا سدود ولا قيود أخلاقية ودينية ، قد يفيض إناؤها الممتلىء ببعض

ما فيه على مَنْ حولها وقد تطلب السلام فى حياتها الخاصة لكى تتجنب القيود التى تعوق انطلاقها لممارسة نزواتها ، وتتفادى المنغصات التى تتعارض مع رغباتها فى الاستمتاع بالحياة ويعينها على تحقيق هذا الهدف إدمانها الكذب وإجادتها لفن الإقناع ، ولقد ذكرنى ما رويت عن اصطفائها لخادمتها لكى تبوح لها بأسرارها المشينة وتستعين بها على كتمانها بما قاله الأديب الأيرلندى أوسكار وايلد من أن « كل امرأة تود أن يكون لها سر تتقاسمه مع مَنْ تصطفيه وتوصيه بكتمانه » .. وهو قول قد يصدق على بعض النساء والرجال ، لكنه لا يصدق بكل تأكيد على الفضليات من النساء اللاتى لا أسرار لهن ولا خوف عليهن من انكشاف أمورهن .

وهذا ما حدث فى حياتك طوال السنوات الأربع والعشرين الماضية ، التى كانت كما تقول فى رسالتك من سنوات «السعادة الخالصة »! ولعلها لو كانت عكس ذلك ، لأعانك هذا على التوقف أمام التجاوزات المنذرة بالخطر التى لاحظتها عليها فى مرات عديدة سابقة ولم تسمح لك هى بنعومتها و«إبداعها » السيكوباتى بتقديرها حق قدرها .. والتصرف فى حياتك على أساس هذا التقدير ، فضلاً عن أن علماء الزيولوجيا « علم الحيوان » يقولون لنا إن أكثر أنواع الحيات نعومة فى جلودها هى أكثرها أيضاً سميِّة وخطراً على حياة الغير ! .. ونأتى فى النهاية إلى تساؤل الابن الأصغر عن قطع الرحم وأقول له مشفقاً عليه مما يعانيه من تمزق وإحساس مؤلم بجرح الكرامة كشاب اهتزت أمامه بعنف صورة الأم ، إن الله عز شأنه الذى فرض للأم حقوقها الكاملة على أبنائها

ورفعها إلى منزلتها العالية فى نفوسهم وعقولهم وضمائرهم، هو أيضاً سبحانه وتعالى مَنْ فطرها فى نفس الوقت على حب أبنائها والرفق بهم والحدب عليهم وطلب سعادتهم وإعلاء مصلحتهم فوق كل اعتبار لديها ، فإذا أخلَّت مثل هذه الأم بواجباتها الدينية والأخلاقية تجاه أبنائها وانطلقت فى الحياة تطلب متعها من أى مورد كما يفعل الوثنيون الذين لم يعرفوا ديناً ولم تصلهم رسالة سماوية ، فلقد خرجت إذن عن فطرتها التى فطرها الله عليها وأنزلت هذه الأم نفسها بيدها عن عرشها ورضيت بما تدهورت إليه من الدرك الأسفل .. ولا يحق لها كثيراً أن تتباكى على وفاء أبنائها لها .. لأنها لم تف هى لهم من البداية بحقوقهم عليها .

وإذا كان الأمل ضعيفاً بالفعل فى أن تستجيب هذه السيدة لأى علاج نفسى منتظم ، لأنها كما فهمت من رسالتك ترفض الاعتراف بحاجتها إليه . ولن تصبر على عنائه لعام طويل على الأقل وربما لعامين .. فليكن إذن قربانها لأبنائها لكى يصفحوا عما فعلت بهم ويتعالوا على كرامتهم الجريحة كرجال هو أن تندم ندماً حقيقياً وليس مزيفاً على نهجها السابق فى الحياة وأن تنتظم فى العلاج النفسى حيث تقيم وتلتزم بالقيم والفضائل فى حياتها الشخصية، فيكون ذلك مدخلاً مقبولاً لأن يصلها أبناؤها ويترفقوا بها .. أما أن تصر على مواصلة سيرتها فى الحياة كما هى وتطلب من أبنائها الرفق والرحمة.. فالرد عليها فى مثل هذه الحالة هو : ولماذا لم ترحم هى أبناءها الشباب وتحفظ عليهم كرامتهم

ورجولتهم وسمعتـهم ومكانتهم بين أقرانهم وهى تغوص فى بحر الخطيئة بلا ندم ؟

إن بعض الصـوفـيـة يقـولون إن « حـرارة الـقلوب تذيب الذنوب » وحـرارة القلوب هنا هى الـندم الصادق الحـقـيـقى والرغـبـة الطاغـيـة فى التطهـر من الإثم ، فلتـثـبت هى أولاً «حرارة قلبها » لكى تسـتحق بذلك عطف أبنائها ، وليرح ابنك الأصغر ضـميره مما يؤرقه فـما ظلم أمه هو أو شقـيقه وإنما كانت هى مَنْ ظلمتـهما كما ظلمتك وظلمت نفـسها .. « ذلك بما قدمت أيـديكم وأن الله ليس بظلام للعبـيد » ١٨٢ آل عـمران .. صدق الله العظيـم .. ولو لم يكن سقوط اعـتبـار مثل هذه الأم فى نظر أبنائها هو العائد الطبيعى لمثل هذا الانحراف الشائن، فأى رادع آخر يمكن أن يردعها عن غـيها ما دامت لا تخشى الله واليوم الآخر ؟

إننى أطالب أبناءك فقط بألا يزجروا أمـهم حين تتصل بهم رعاية لحـدود ربهم وليس رعـاية لها وأن يجـيبوا مكالمـاتها بتحفظ مهذب ويتمسكوا برفض مجـيئها إليهم أو سفرهم إليها كـمـا تطلب ، إلى أن تقـدم هى مـا يثـبت لهم أنهـا قـد أنكرت سيرتها السابقة فى الحياة وعدلت عنها ، ولا بأس أن يتبادلوا معهـا كلمات التحية المقتـضبة فى الأعياد والمناسـبات ، قربى لربهم وإعانة لها على إصلاح نفسـها ، أما ظهورها فى حياتهم الآن ولما تبـرأ بعـد من انحـرافهـا ، فليس من المسـتحب لهم بالفعل حرصاً على معنوياتهم وأخـلاقياتهم وفرصهم العادلة فى السعادة والارتباط بشريكات الحياة .

السـؤال الأهـم

قررت أن أكـتب لك منذ عدة سنوات وها قد شـاءت الأقدار لى أن أكتب لك الآن ، فـأنا سيـدة في الثالثـة والثلاثين من عـمرى .. ارتبطت وأنا صبـية فى سن الرابعة عشـرة عاطفياً بفـتى يماثلنى فى السن ومن جـيـراننا .. ولم تتـجـاوز صلتى بـه فى البـداية النظرات والإشارات إلى أن تبادلنا الاعـتراف بالحب وتعاهدنا على أن يكون كل منا للآخـر مـهمـا طال الزمن ، واسـتمـرت علاقـتنا العاطفـية ثمانى سنوات كاملـة ثم تقدم فتاى لأسـرتى طالباً يدى ورفضته الأسرة فى البـداية بسبب تقارب السن ، ثم رضخت فى النهايـة لرغبتى وتمت الخـطبة وأنهينـا دراستنا .. وعمل خـطيبى وعـملت أنا أيضـاً .. وتم الزفاف بعـد قـصـة الحب الطويلة التى تملكتنى مـنذ صبـاى ، وبعـد بضـع سنوات من الزواج تبـين لى ولزوجى أننى غيـر قادرة على الإنجاب ، فبدأت مـعاملة أم زوجى لى تتـغير بعـد أن كانت بمثـابة الأم الحنون بالنسبـة لى ، وبدأت تحث ابنهـا على الزواج مـن أخـرى من أجل الإنجـاب ، ورفض زوجى فى البـداية لأننى حب العمـر بالنسـبة له ، لكن اسـتمـرار الإلحاح عليـه دفع به فى النهاية إلى الضعف .. فجـاء يضع الأمر بين يدى ويسألنى عن رأيى .. وبكيت وأنا أبلغه عن موافقتى على

زواجه لكنه كان يعرف جيداً أننى لم أفعل ذلك إلا إرضاء له ، فعدل عن فكرة الزواج وصارح أمه بالرفض ، وتصورت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، لكن والدته لم تيأس من الإلحاح عليه بفكرة الزواج وفوجئت به يقبل بها بعد شهور ويعرض علىّ الأمر مرة أخرى .. ولم أستطع هذه المرة المقاومة ، وكتمت حسرتى فى قلبى واعتصمت بالصمت .. فتزوج زوجى من فتاة اختارتها له أمه مع احتفاظه بى ، ولن أصف لك ما شعرت به خلال هذه الفترة ، وإنما أقول لك إننى قد رضيت بما كرهته لنفسى لكن زوجته الأخرى هى التى لم ترض بواقعها مع أنها قد قبلت بالزواج منه وهو متزوج ، فراحت بعد أن أنجبت منه طفلاً تضغط عليه لكى يطلقنى وشاركتها والدة زوجى فى الضغط عليه بدعوى أن حياته قد استقرت مع الزوجة الجديدة بالإنجاب ، وأن وجودى فى حياته لن يعنى له سوى المشاكل والاضطرابات .. وأدركت أنا حيرة زوجى وتمزقه بين حبه لى وضغط زوجته ووالدته عليه ، فقررت أن أعفيه من عهده معى .. وطلبت منه الطلاق لكى أوفر عليه الحرج ، وافترقنا بالدموع .. وبلا مرارات ..

وعشت حياتى أحاول تضميد جراحى .. وتابعت عن بعد أخبار الرجل الذى أحببته وأنا صبية فى الرابعة عشرة من عمرى ، وعرفت أنه قد أنجب طفلا ثانياً ، ثم تقدم لى رجل متزوج ولديه أبناء يرغب فى الزواج منى بحجة أن زوجته مريضة ولم تعد قادرة على تلبية احتياجاته ، ولم أجد فى نفسى أية رغبة فى تكرار مأساتى الشخصية مع زوجة أخرى ، فاعتذرت عن عدم قبوله .. وقلت لأهلى أننى لا أشعر بأننى قد أصبحت مستعدة بعد

للارتباط برجل آخر بعد الرجل الذى أحببته ٨ سنوات قبل الزواج .

والحق أننى كنت صادقة فى ذلك مع نفسى، فلقد كنت مازلت أحب هذا الرجل .. ولم أتخلص بعد من تأثيره على شخصيتى وأفكارى، وكرهت أن أرتبط برجل آخر ما زال قلبى ممتلئاً بغيره .

ومضت خمس سنوات، فوجئت بعدها بمصرع زوجة فتاى القديم فى حادث طريق مؤلم .. وانقبض صدرى لما سمعته .. ثم مضت عدة شهور وإذا بى أراه فجأة فى مجال عملى وأرى نظرة الاشتياق فى عينيه .. وقال لى إنه قد جاء للاطمئنان علىّ، فتجنبت النظر فى عينيه لكيلا ترطب نظراته النبع الجاف فى داخلى فتتدفق مياهه مرة أخرى .. وانتهت الزيارة بسلام ، ووجدتنى مشغولة الفكر والخاطر به .. ولم يمض وقت طويل حتى رجع مرة أخرى ، ثم تكررت الزيارات إلى أن اضطررت لأن أرجوه عدم تكرار الزيارة حتى لا يثير حولى الأقاويل فى مكان عملى .. فإذا به يصارحنى برغبته فى أن نستكمل قصة حبنا وزواجنا التى تدخلت ـ كما يقول ـ الظروف وحالت دون استكمالها !

ووجدتنى أرفض عرضه على الفور دون تفكير بل ووجدنى ألومه فى أعماقى واتهمه بأنه قد تخلى عنى وهجرنى ست سنوات ودخلت حياته امرأة أخرى، فلما تدخلت الأقدار وانطوت صفحة حياتها القصيرة .. جاء يريد استرجاع سنوات الحب الضائعة بمثل هذه البساطة ؟

وقلت له ذلك فقال لى إنه لن يلومنى إذا رفضته لكنه يرجونى فقط أن أعيد التفكير فى الأمر وألا أسمح لكرامتى الجريحة بأن تختار لى طريقاً لا يريده قلبى .

ووعدتـه بالتفكيـر .. واستـشرت أهلى، فلم أجـد منهم رفـضاً لعودتى له لعلمهم بحبى له منذ عشرين سنة ولأننى أيضاً كنت قد أصبت بـالاكتئـاب بعد طلاقى منه لمدة عـامين ، لكنى لم أسـتطع بالرغم من ذلك أن أتخلص بعـد مما أشعـر به من مرارة تجـاهه ، وكلما استـشرت صديقة لى فى قـصتى ظنتها قـصة من قصص السينما وليست من واقع الحياة .

وأننى أسألك يا سيدى هل من العدل بعد أن تخلى عنى زوجى السابق وتزوج من أخرى أن أرجع إليه الآن لأنه يحـتاجنى لتربية طفليه ، أوليس من حقى أن أرفـضه .. كما رفضنى يوم اسـتجاب للضغط عليه وطلقنى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من حقك بالطبع أن ترفضيه .. وأن تشعرى تجاهه بالمرارة لاستـجابته لضـغوط زوجـته الراحلة عليه ووالدتـه للتخلى عنك بعد ١٥ عاماً من الارتباط العاطفى الوثيق .. لكن السؤال الأهم يا سيدتى هو : وماذا لو لم يكن زوجك السابق قد عرض عليك استكمال قصة الحب والزواج التى حالت الظروف المؤلمة دون استكمالها ..؟ ألم تكن مـرارتك تجاهه ستكون أعمق غوراً من مرارتك منه الآن ..؟ أو لم تكونى ستشعرين باللوم الأعظم له لأنه وبعد أن أتاحت له الأقدار استكمال القصة الحقيقية فى حـياته .. لم يفكر فى تعـويضك عـما تسـبب لك فيـه من آلام وأحـزان .. ولم يقبل هـذه الفرصـة القـدرية التى لا تتكرر فى الحياة كثيراً لتصحيح الأخطاء السابقة ؟

أغلب ظنى أن لومك لـه لو لم يفـعل ذلك كان مـقـدراً له أن يكون أشد وأعـمق ، وفى تقديرى أنك لا ترفضينه الآن رفـضاً

حقيقياً ونهائياً .. وإنما تشعرين فقط بأنك لم تستأديه بعد ضريبة التكفير الكافية عن تخليه عنك وانصرافه إلى زوجته الراحلة وطفليه دونك ، ولا شك فى أنها رغبة مؤقتة فى الانتقام العاطفى ستأخذ دورتها الزمنية ثم تخلى مكانها لمشاعر الحب المتأصلة منذ الصغر وللرغبات الحقيقية التى تتوارى الآن وراء اعتبارات الكرامة الجريحة ، ولهذا فإننى لن أنصحك برفضه ولا بقبوله وإنما سوف أنصحك بالصدق مع نفسك وبتحرى رغباتك الحقيقية ثم اتخاذ قرارك بعد ذلك على ضوء ما تنتهين إليه من استقرائها والاعتراف بها لنفسك.

وعلى أية حال ، فلقد كان من المنطقى أن ترفضى عرضه عليك بالعودة لعصمته للوهلة الأولى .. مدفوعة فى ذلك باعتبارات الكرامة وأيضاً باعتبارات « الشك » فى أن رغبته فيك ليست مبرأة تماماً من الدوافع العملية ، أى من حاجته الاضطرارية بعد رحيل زوجته إلى أم بديلة لطفليه الصغيرين.. وبالرغم من مشروعية هذا الدافع وإنسانيته إلا أن كرامتك الجريحة كأنثى تحتاج إلى أن يشعرك زوجك السابق بأنه لا يفكر فيك كأم بديلة ، وإنما كحبيبة قديمة حالت بينه وبينها الظروف القاهرة ، وعلى قدر نجاحك فى إقناعك بذلك ستختصرين فترة معاندة النفس والقلب .. وتقبلين بما تريدينه فى أعماقك منذ البداية لكنك تشعرين بحاجتك إلى مزيد من الترضية والتكفير قبل أن تمضى إليه .

والأقدار يا سيدتى قد تتولى أحياناً حل بعض المشاكل التى يستعصى على البشر حلها بقدراتهم المحدودة ، ولقد شاءت

الأقدار التى فرقت بينك وبين حب العمـر من قبل أن تتيح لكما الفرصة من جـديد لاجتماع الشمل ، ولتعـويضك عن حرمانك من الأمومـة بهذين الطفلين اللذين ينتـسبـان إلى مَنْ أحببـته وأنت مازلت فى الرابعة عشرة من عـمرك .. ففيم التردد إذن ؟ ولماذا لا تعطين لنفسك الوقت الكافى لـتذويب المرارات وإخلاء الإناء من رواسبـه القديمة .. ثم تتفـتحين بعـد حين للحب .. وللأمومة مع زوجك السابق وطفليك الصغيرين هذين ؟

نداء فى الليل !

أكتب رسالتى هذه من أجل جارة لى أرجو أن تجد لديك ما يخفف عنها بعض ما أمتحنت به من اختبارات الحياة ، فلقد نشأت هذه السيدة فى أسرة بسيطة ولأب مثقل بالأعباء وتزوجت كما يتزوج البسطاء من إنسان طيب لكنه محدود الدخل ومع ذلك فلقد سعدت بحياتها البسيطة المتقشفة معه .. وشعرت بأن الحياة قد كافأتها به ونعمت بالاستقرار معه ، فإذا بهذا الاستقرار لا يطول لأكثر من عامين فقط ثم يرحل زوجها عن الحياة إثر حادث أليم للسيارة النقل التى كان يقودها ، وواجهت السيدة الشابة أقدارها كأرملة حائرة فوق ذراعها طفل لم يتجاوز عمره عاماً واحداً ، وفى أحشائها جنين لم يقدر لأبيه أن يشهد مولده ، واضطرت لمواجهة الحياة وحدها بعد أن أصبحت مسئولة عن حياتها وحياة طفلها ثم طفلتها التى جاءت للحياة بعد رحيل الأب . وليس لها أى من معين سوى تعاطف أهل المنطقة التى تقيم بها معهم ، فعملت كدادة بإحدى المدارس بعقد مؤقت وبمرتب ضئيل ، وراحت تعمل ليل نهار بلا كلل ، ولا ملل لكى تعول طفليها ، ورفضت الزواج بإصرار شديد بالرغم من شبابها وصغر سنها ،

وفضلت أن تكرس حـياتها لطفـليها قائـلة لـمَنْ يعرضون عليـها الارتباط أنها قـد جربت حظها فى الزواج مرة واحـدة .. وسعدت بها ولكن مسئوليتها عن طفليها تدفعها لأن تتفرغ نهائياً لهما ..

ومضت بها رحلة العمر بحلوها ومرها ، والطفلان يدرجان فى مدارج العمر أمامها ويزدادان التصـاقاً بها وحبا لها يوماً بعد يوم وتزداد هى فناءً فـيـهـما ، حـتى أنهى الابن دراسـتـه المتـوسطة وحصل على الدبلوم وخرج إلى الميدان ليعـمل ويساعد أمه وأخته الطالبة الجامعية بدخله الجديد على مـواجهة أعباء الحياة ، وبدأت حياة هذه الأسرة المكافحـة تعرف بعض اللين ، وبدأت الأم تشعر بالرضـا عن كفـاحهـا الذى أثمر هـذا الشاب المتـعلم الطيب وهذه الفتاة الجامعية الذكيـة ، فإذا بالسماء تتجهم من جديد لهذه الأم .. وإذا بابنها الشاب الذى لم يتـجاوز عمره الثانيـة والعشرين يلقى مصـرعه فى حـادث سيارة .. كـما لقى أبوه مصـيره قـبل واحد وعشـرين عامـاً .. وإذا بالأم ترفض تصديق ما حـدث وتمتنع عن الطعام والشراب تماماً وتسـتسلم لنوبات من الفزع الليلى لتنهض خـلالها من نومـها أو من غـيبـوبتـها على الأصح .. وهى تهـذى بالنداء على الابن الفقـيد .. وترفض الذهاب إلى عملهـا ، ومغادرة الغرفة التى تقيم بها أما ابنتهـا فلقد أصيبت بانهيار عصبى وآلام حادة فـى المعدة ، فسـرها الطبـيب بأنها آلام نفـسيـة أكثر منـها عضوية .

إن كل مـا أطلبـه منك هو أن تـفكر فى طريقـة ، لإخـراج هذه الأسرة الحـزينة من محنتهـا ، فلقد عجـز الجميع من حـولها من الجيران والأقارب عن أن يفعلوا شيئاً يـخرجها من حالتها ، ولهذا

فلقـد تركنا لك هذه المهـمة الصـعبـة وأرجـو أن يوفقك الله فـيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من أشد أحزان الحيـاة مرارة على النفس أن يفجع المرء فى ثمـرة القلب وهو يتهـيأ بعـد رحلة العناء الطويل لاسـتقبال نسائم الراحة .. والابتـهاج بالحياة بعـد طول الانتظار ، غير أن الإنسان لا يملك فى النهاية إزاء آلام الحيـاة واختباراتها إلا أن يسـتعـين بإيمانه بربه على ثبـات القلب أمـام الأعاصـير القاسيـة .. مسترجعاً مـا أنبأنا به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أن أمر المؤمن كله خير أن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وأن أصابته ضـراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد ـ كـما أنبأنا الحديث الشـريف ـ إلا للمؤمنين ، لأنهم يعلمون أن كل شـىء فى الوجود مصـدره رب الوجود سبحانه وتعالى ، فإن أصابهم خـير علموا أنه من عند الله وشكروا من منح وأعطى وأن أصـابهم شر علمـوا أن لله سبـحانه وتعـالى حكمـة فيـه تجل عن إفـهامـهم ولهم أن صـبـروا عليه الأجـر العظيم وبشرى السماء للصابرين .

ولقـد جـاء فى الحـديث الشـريف أيضـاً أن الله سبـحـانه وتعالى يجـرب عبده بالبلاء كـما يجرب أحـدكم ذهبه بالنار، فـمنهم مَـنْ يخـرج كـالذهب الابريز لا يربـد ومنهم دون ذلك ومنهم مَنْ يخرج أسود محترقاً .

فلندع الله مـعاً يـا سيـدتى أن تكون هذه الأم المكلومـة ممَنْ يخرجون من البلاء كالذهب الأبريز لا يربد ولا يصدأ .

ولقد تعينها الرحلة إلى الأراضى الحـجازية ، وأداء شعائر الحج أو العمـرة حسبمـا تسمح الظروف ، على تمالك نفسـها واستـعادة ثبات قلـبها وقـدرتها على استكمـال رسالتـها مع ابنتها ولسوف أرسل إليها بمن يتـحدث إليها ويدرس ظروفها ويحاول إخراجها من عزلتـها .. وإعانتها على أمرها .. وشكراً لك على اهتمامك بأمرها والسلام .

نـــارالكـراهيـة

أنا أب لمهندس شـاب تزوج من زمـيلة له ، وعـاش معـهـا فى سـلام وأنجب منها طفـلاً وطفلة ، ثم تعـرض ابنى خلال عـمله . لإصابة فى شبكية العين وأجريت له عـملية جراحية وأمره الطبيب بأن يستسلم لـلرقاد على ظهره فى الظلام لفتـرة طويلة . واختار ابنى أن يقـضـى هذه الفـتـرة فى بيت والديه لـيـضـمن الهـدوء والالتزام التام بتعليمات الطبـيب ، فما أن علمت زوجته بذلك حتى امتنعت عن زيارته فى بيتنا مع قرب المسـافة بين مسكن الزوجية وبيتـنا ، وتمادت الزوجة لأسبـاب غريبـة بعد ذلك فى مـوقفـها ، وطلبت الطلاق ، وحصلت عـليه وتنازلت عن الطفلين ، وكان عـمر الأكـبـر حـين وقع الانفـصـال ثلاث سنـوات والطفلة عـامـين ، واستردت أمـهما منقولاتهـا وتنازلت عن الشقة ، وبعـد محاولات فـاشلة للصلح بين الطرفـين تزوج ابنى من أخـرى وتزوجت هى كذلك من آخر ، وبعد زواجها بفترة اتجهت إلى القضاء لطلب إلغاء تنازلهـا عن الطفلين ، وقـضت لهـا المحكمـة بما أرادت ، ولا بأس بذلك ، مع أننا لم نتـأخـر أبداً عن تلبـية طلبـهـا لرؤية الطفلين أو استضافـتهما عندها فى المناسبات والأعـياد كلما رغبت فى ذلك ، وتوقعنا أن تعـاملنا مطلقة ابنى بالمثل بعد أن أصـبح الطفلان فى

حوزتها ، فإذا بها تمنعهما من رؤية أهـل أبيهما وتتشفى فينا بهذا المنع ، ويسـانـدها والدها فى ذلك ويطلب من الوسـيط إبلاغنا بأن علينا أن نقيم دعوى قضـائية لرؤية الطفلين ، ولم نقم هذه الدعوة بالطبع ، وما زلنا محرومين من رؤية الحفيدين ، وما زال الطفلان محـرومين من أهل أبـيهمـا .. والأكثـر من ذلك أن والدتهمـا تبث فيـهمـا روح الكراهية والعـداء تجاهنا ، فلـقد ذهبت إلى مـدرسة الطفلة لأراها ، فـما أن رأتنى حـتى اكفـهرت وانزعجـت واشاحت بوجهها عنى .. وهى الطفلة نفسها التى كانت تغمرنى بقبلاتها من قبل ولا يحلو لها النوم إلا على صدرى ..

فهل هذا هو مـا تريده هذه الأم الشابة لابنيها وهو أن يتـشربا الكراهية لأهل أبيـهما فى هـذه السن الصغيـرة ؟. وهل تضمن ألا تمتد إليها هى نفسها نار الكراهية من جانب هذين الصغيرين حين يكبران ، وبعـد أن يكونا قد تعلمـا على يديها كـيف يكرهان أقرب الناس إليهما ؟

وأين هى من كلمات ربـها التى تتوعـد قاطع الرحم ، فتـشجع صغيريها على قطع رحمهما من الآن ؟!

إننى أرجوك أن تنصحها وتحـذرها من غضب ربها .. وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

بغض النظر عن الأسبـاب التى أدت إلى انهيـار العلاقـة الزوجـيـة بين ابنك وزوجـتـه الـسـابقـة .. وأياً كـانت هذه الأسباب، فإنه ليس من إحسان الأم إلى ابنيها أن تغرس فيهما روح الكراهيـة لذوى رحمهـما ولا أن تبـاعد بينهمـا وبينهم ، فالإنسان يحـتاج إلى أهل أبيه كما يحتـاج إلى أهل أمه وكلما

كـثر ذووه وتعـمقت علاقـته بهم وعـلاقـتهم به أمن أشـواك الطريق ووجـد إلى جواره مَـنْ يهتـمون بأمـره ويقـيلونه من عثـرات الحياة عند الضرورة ، بـل ازداد إحساسه الشـخصى بعزته وجدارتـه ، وخلت نفسه من مرارة الإحـساس بانعدام النصير . وتشـجيع الصغيـر وفى مثل هذه السن المبكرة التى يستقبل فيها مـؤثرات القائم على تربيته دون قدرة على الفرز والتمحيص واستـبعاد الفاسد منها ، والتى يتحـدد فيها أيضاً الكثير من سمات تكوينه النفسى الذى سيصاحبه بقية العمر ، تشجـيعه على تعلم الكراهيـة بدلاً من الحب والشك فى أقرب الناس إليه بدلا من الاطمئنان إليـهم ، والنفور من ذوى رحمة بدلاً من اقترابه منهم وتمتعه بحنانهم وحمايتهم النفسية ، كل ذلك لن يقدم إلى الحياة فى النهاية إلا إنساناً مضطرب المشاعر ممرور النفس أقرب للاستعداد لكراهية الآخرين من الاستعداد لقبولهم نـفسياً والاستـجابة الإيجابية لمشاعـرهم ، فكأنما قد حكم عليه مَنْ غرس فى روحه هـذا البغض للأهل فى الصغر ، بأن يحيا حياته بإحساس الـعاجز عن حب الآخرين واكتساب مودتهم .. والتواصل الطبيعى معهم .

ولا عجب فى ذلك لأن النار حـين يشتعل ضـرامها ، فـإنها لا تنتشر بطريقة انتقائية فـتتفادى هذه البقعة وتحرق تلك ، وإنما تتجه ألسنتـها بقـوة الدفع الذاتية فى كل الاتجـاهات ، وليس بمستبـعد على مَنْ رضع الكراهيـة من ثدى أمه لأبـيه وجده وجدته أن تمتد كراهيـته عند أول مفترق للطرق إلى مَنْ أرضعـته لبـان البغض وكـره الآخرين من قـبل ، ولهذا فـإنه بالمنطق النفعى وحـده ليس من صالح أى أم أو أب أن يغرس

فى نفوس صغاره كراهية أحد الطرفين أو ذويه .

أمـا بالمـنطق الدينى والأخـلاقـى ، فـيكـفى قـاطع الرحم ما جاء فى الأثر عن عـائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبى ﷺ ـ من قوله : « الرحم معلقـة بالعرش تقول : مَنْ وصلنى وصله الله ، ومَنْ قطعنى قطعه الله » صـدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذا شاءت هذه الأم الشـابة لنفسها وصغـارها أن يقطعها ويقطعـهم ربهم جل شأنه ، فـهى وما اختـارت لنفسـها ، وإن شاءت غيره فالطريق واضح وقصير ، ولا يحتاج إلى دليل !

الموقع الأخير

أنا سيدة على مشارف الأربعين من العمر متزوجة منذ ١٤ عاماً ولى ٥ أطفال أكبرهم فى الصف الخامس الابتدائى وأصغرهم يبلغ عاماً ونصف العام .

وأعمل موظفة بإحدى المصالح الحكومية . ومشكلتى هذه التى أعانيها .. وأصبح أطفالى الأبرياء يتقاسمونها معى الآن دون ذنب سببها زوجى ووالد أبنائى ، فهو دائم التنقل والترحال دون هدف على الرغم من أنه رجل طيب ومحب جداً لأولاده وخريج إحدى الكليات النظرية ومتفوق جداً فى عمله وبشهادة رؤسائه وزملائه فى الأوقات التى كان يعمل فيها ، كما أنه يجيد أيضاً بعض الحرف المهنية ، وبالرغم من كل ذلك ، فإنه فجأة وبدون مقدمات يترك عمله ونترك شقتنا وأحمل أولادى ونرحل سواء إلى خارج مصر أو إلى مدينة أخرى داخل مصر . إن محل ميلاد كل طفل من أطفالى من واقع شهادة الميلاد مختلف عن الآخر تماماً ، كما أنه إذا فحصت الملف الدراسى الخاص بإحدى بناتى ، فستجد أنها كانت تدرس كل عام فى مدرسة غير العام الذى يليه ، ونحن أسرة بلا جذور تقريباً وبلا ذكريات وقد قمت بحصر الشقق والمنازل التى أقمنا بها ، فوجدتها أكثر من ١٧ شقة ومنزلاً ، فهل

تتخيل يـا سيدى أن أطول مدة كنا نقـيم فيها فى مدينـة ما كانت لا تزيد على سنة ، وأنه أحـيـاناً كان ينتـقل بنا إلى شـقة أخـرى داخل المبنى نفسه الذى نقـيم فيه ، لقد استنفـدت فترات الإجازات السنوية المقررة وانتدبت إلى معظم محـافظات الجمهورية حتى أن زملائى وزمـيلاتى فى الإدارة الأم التى أعمـل بها يشفـقون علىّ ويتساءلون بين أنفسهم مما يضعنى فى حرج شديد ، ومنذ عامين وبعد عودتنا من آخر رحلة خارج مـصر أتفق معى على الاستقرار فى مصـر واتجهنا بالفعل إلى إحدى المدن الجـديدة ، وقام زوجى بافتتاح مشروع جديد يتعلق بإحدى المهن التى يجيدها واستخرج كل الأوراق المطلوبة من رخصـة وبطاقة ضريبيـة وسجل تجارى ونجح بالفـعل مـشـروعنا الجـديد هذا والتـحق أولادى بالمدارس وأحسـست بأن أبواب الفرج ستـتفتح أمـامى ، غير أنه وكـالعادة أغلق زوجى مشروعه وتركنا الشـقة رقم ١٥ أو ١٦ وسافرنا إلى محافظة أخرى وهى التى أقيم فيـها الآن وقمت بعمل انتداب جديد لى وتحـويل أوراق أولادى إلـى مـدارس تلك البـلدة الجـديدة واسـتأجـرنا شقـة جديدة وهى رقم ١٧ أو ١٨ ووعـدنى زوجى بالاستقرار فى تلك البلدة غير أنه قام أيضاً بتغـيير الشقة فوافقته وبكيت أمـامه وتوسلت إليـه وأقسـمت بأننى لن أترك هذه المدينة أبداً لأننى تعـبت أنا وأولادى وبدأ الضـعف يزحف إلى جسـدى ووعدنى بالاستقرار .

وذات ليلة فـوجـئت بزوجى يقـبِّل أولادى وهم نيـام حـوالى الساعـة الثالثة صبـاحاً ويحمل حـقيبة سـفر وعندما سـألته عن السبب قال إنـه سيرحل وسيخـبرنى بمكانه عندما يسـتقر ، إننى لا أعـرف سـر هروب زوجى الدائـم هذا رغم أنه طيـب جـداً

وصحـيفته بيـضاء وليس له أى أصدقـاء وليس له فى هذه الدنيا سوانا ، ولقد اتصل بى زوجى حـتى الآن من حوالى أربعة أماكن مخـتلفة وأرسل لى ذات مـرة مع أحد السائقـين مبلغ ٦٠ جنيـهاً علمت فـيما بعـد بأنها كـانت كل ما يملك وعلمت أيـضاً أن نوبات الصداع الشديد تهاجمه بشدة .

وأصبـحت أواجه الحـياة بمفـردى وظهرت مشكـلة أخرى فى حياتى وهى أن لى ابناً يبلغ من العمر ٤ أعوام شديد التعلق بوالده وأصيب باكتـئاب بعد غيـاب أبيه وفقد كثـيراً من شهيـته وعندما أتصل زوجى بى مرة وأخبـرته بحال ابننا حضر فى اليـوم نفسه وأخذ مـعه طفلى المسكين ورحلا الاثنان وطلب منى السـماح لأنه ليس بيده شىء .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا شك فى أن زوجك يعانى بالفعل اضطراباً سلوكياً يدفعه إلى التـجوال الـدائم فى أرض الله الواسعـة .. وقـد يكون هذا الاضطراب شكلاً مخففـاً من أشكال الفصام الحركى الذى يدفع صـاحبـه للتـحرك المسـتمـر ليل نهـار ، فيـعـرضه للانهـاك الجسدى ، ويؤدى به أحيـاناً إلى العجز عن أداء أى عمل على الوجـه السليم ، وربما يكون كـذلك نوعـاً من مـزاج الهـروب النفسى الذى يدفع صاحبه للانتقال الدائم من مكان إلى مكان ، كأنما يهرب من شىء مجهول أو كأن هناك أقداراً خفية تطارده ويسرع بالفـرار منها ، وفى كل الأحـوال ، فإن هذا الاضطراب السلوكى يمكن احتـمال آثاره الاجتمـاعية إذا كان مَنْ يعـانيه فرداً غـير مـسئـول سوى عن نفـسه ، أمـا حين يكـون زوجاً لزوجة وأباً لخمـسة أبناء ، فإن الأمر يستـدعى بالفعل البحث

عن علاج له لدى الاخصائى النفسى ، كما أن عليك أنت أيضاً مسئولية كبرى فى مقاومة هذه النزعة الجبرية لديه للحركة والانتقال من مكان إلى مكان .. وذلك بالتشبث بالموقع الأخير الذى رست فيه سفينتكم الجوالة فى كل البحار ، ورفض مغادرته نهائياً ومهما كانت الأسباب والمبررات ، وعلى زوجك ابتداءً من الآن إذا أصر على مواصلة حياة البحارة الذين لا يطول بقاؤهم فى كل ميناء سوى يوم أو بعض يوم ، أن يسلم بأنه من الأفضل له ولأسرته أن تكون له « قاعدة » آمنة يبحر منها وحيداً حين يلح عليه نداء الرحيل ، ويرجع إليها متعباً ليجد الراحة والأمان حين يطول به التجوال .. وما أعجب ما يتكشف لنا كل حين من غرائب النفس البشرية وألغازها الغامضة !

البيت الجميل !

أكتب لحضرتك وأنا أبكى من عينى وقلبى ولا أعرف ماذا « أعمل » فى مشكلتى وأنا بصراحة كنت لا أقرأ المشاكل التى تكتبها لكن وجدت ماما مرة تقرأها ، فكتبت لك يمكن بابا وماما « يقروا » مشكلتى : فأنا عندى ١٠ سنوات وأخى عنده ١٢ سنة ونعيش وحدنا فى شقة وضعنا فيها بابا لما أخذنا من ماما ، لأن بابا وماما « مطلقين » وبابا متجوز وعايش فى شقة ثانية وماما عايشة مع والديها وبابا أحضر لنا مربيات كثيرات و « كلهم » « وحشين » وبابا « غيرهم » وآخر واحدة مشيت لأن بابا عرف أنها حرامية وسرقت حذاء لى وملابسنا ، والتى قبلها كانت بتحضر « رجال » إلى البيت واحنا نايمين أو لما نروح المدرسة ، وأنا دلوقتى مع أن عمرى ١٠ سنوات بأعمل الأكل كل يوم فى المساء علشان تانى يوم وكمان بأغسل الغسيل على غسالة عادية والأطباق والحلل بعد كل وجبة وأخويا قليل لما يساعدنى لأنى بنت ، وتنظيف البيت كله عليه ، ولا أجد الوقت للمذاكرة بعد أن كنت أيام ماما متفوقة ، وربنا يستر وننجح آخر السنة ، وبابا قليل لما يحضر وينام معنا فى البيت ولا يريد أن نختلط بأحد ومنبه علينا ألا نقول لأحد من الجيران إننا نبيت لوحدنا وكمان ألا نقول لماما

لدرجة أنـنى لما أكبـر واتجوز مش حاجـيب أولاد يتعـذبوا زينا ، وبابا مـحلفنى أنا وأخى على المصـحف أننا مـا نكلمش مامـا ولا يسمح لـنا بأن نشوفهـا إلا مرة واحـدة كل أسبوعـين وأنا وأخى بنحب ماما جـداً ونوفر من مصروفنا لكى نشترى كـارت تليفون ونكلمها من الشارع واحنا راجعـين من المدرسة وربنا يسامحنا .. وماما قعـدت بعد طلاقها من بابا سنين مش راضية تـتجوز لغاية من ٣ سنين لما بـابا أخـذنا منهـا اتجـوزت وسـافـرت ورجـعت واتطلقت ، وطلبت أن نعيش معهـا لكن بابا رفض علشان يعذبها ، وبيـقول إذا كـانت عايزة تأخـذنا فهـو مش هيصـرف علينا ولن يعطينا الشقة وإحنا ما نقدرش نعيش مع ماما فى بيت والدها لأن خالى متجوز ويعيش مع والديه وأى مربية حتيجى لو وجدها بابا حتسـيبنا لوحدنا وتخرج زى كل المربيات .. مـا عملوا .. فلماذا لا نعيش مع ماما وهى نفسـها تعيش معانا وتخدمنا ونحن كذلك ؟

وهل ممكن يا عمو تلاقى مامـا راجل يتجوزها ويرضى نعيش معاه فى شقته ويربينا زى أولاده ويحبنا أكثر من بابا ، إننا نزور بابا فى بيـته « التـانى » الجمـيل وبيقـول لنا أنه لا يقدر يأخـذنا نعيش معـاه فى بيته الجميل وأحنا سـاعات بنحس أنا وأخويا أنه ما بيحبناش .

وماما بتقول عيب يبقى فيه محاكم بينها وبين بابا ..

أنا كـان نفسـى أكـون دكـتـورة وأخـويا كـان نفسـه يكون « مهندس » لـمـا نكبر ومامـا كانت بتـشوف دروسنا وبتغسل لنا ملابسنا وتعمل لنا الأكل وكل حاجة وكنا شاطرين وياريت نرجع زى زمان .

وأنا كتـبت لك لأنى عندى مدرسـة فى المدرسة بأحـبهـا قوى

لقيتنى مرة بأعيط فى المدرسة لوحدى وصممت تعرف ليه وحكيت لها وقالت لى إنه كان عندها بنت وماتت وأنا زى بنتها وقالت أكتب لحضرتك لأنها بتقرأ لك زى ماما وممكن تساعدنى وتلاقى لماما رجل متدين عنده بيت وليس عنده أولاد ويحب أننا نكون أولاده .. فهل ممكن تساعدنا فى هذا .. أنا وأخويا حنشترى الأهرام كل يوم جمعة لغاية ما ترد علينا لأننا عايزين حل بسرعة.. والسلام عليكم !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو كان الأمر بيدى لحاسبت أباك حساب الملكين عن إصراره بغير رحمة على أن يمنع والدتكما من الحياة معكما فى المسكن الذى تعيشان فيه وحيدين الآن إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .. أو تتزوج أمكما ذات يوم من رجل غرس الله فى قلبه الرحمة بالصغار ، فيقوم منكما مقام الأب الغائب عنكما لكن ماذا نقول فى عناد بعض الآباء مع بعض الأمهات الذى لا يدفع ثمنه الفادح سوى الصغار الأبرياء ؟

وماذا نقول لمنْ يرضى لطفلته وابنه الصبى بأن يعيشا وحيدين تماماً فَى مسكن مستقل وفى استطاعته أن يأمن عليهما فى رعاية أمهما مهما كان تاريخها السابق معه أو تاريخه معها ، أليس ذلك أكرم وأرحم من أن يأتيهما بمربية تستقبل الرجال خلال نومهما أو غيبتهما ، أو ليس ذلك أفضل وأرعى لهما من أن يأتيهما بأخرى تدعهما لنفسيهما أكثر الوقت مع ما فى ذلك من مخاطر تربوية عديدة عليهما ؟

إن الشذوذ هو اللجوء إلى شىء بديل مع وجود الشىء الأصيل و « الشىء الأصيل » هنا هو الأم الطبيعية لكما التى

ليـست الآن فى عصـمة زوج ولا شىء يمـنعهـا من رعايتكما والإقـامة مـعكما ، فـماذا يسـعـد أباك فى أن يحرمـها منكما ويحرمكما منها ؟

لقد نهـانا الرسول الكريم صلوات الله وسلامـه عليه من أن نفرق بيـن الأم وأبنائها وقال مـا معناه « مَنْ فـرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبَّته يوم القيامة » .

ولهذا ، فإنى أدعو أباك لقـراءة رسالتك الموجعة هذه .. وأن يتفكـر فى معانى كلمـاتها السـاذجة المعـبرة عن حيـرة طفلة لا ذنب لها فيما ينكره أبوها على أمها ولا فى موقفه منها .

أما مطلبك الآخر فى أن « أجد » لأمك رجلاً مـتديناً يتزوجها ويقبل بكـما معـها ويرعاكـما كـأبنائه الذين من صلبه .. فـما أقسى أن يبـحث الطفل الصغيـر عن البديل لأبيه الطبـيعى .. وهو على قـيد الحيـاة يحيـا حيـاته فى « بيت جمـيل » لكنى أعـدك بأن أبذل ما أملكه مـن جهـد فى هذا الشأن وأن أعـرض على والدتك ما قد أتلقاه لها من عروض ملائمة فى هذا الشأن ، وأرجو منك أو من والدتك الاتصال ببريد الأهرام مساء الاثنين المقبل لإعطاء البيانات الكافية عنها لأن رسالتك خالية من هذه البيانات كما أنهـا خالية أيضاً من العنوان الذى يمكن الاتصال بكم فيه .. وشكراً لك .

صدر للمؤلف

١	أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نفد)
٢	يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نفد)
٣	هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نفد)
٤	صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	ط.أولى١٩٩٠ط. الخامسة٢٠٠١ (نفد)
٥	نهر الحياة	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٠ط. الثالثة١٩٩٦
٦	العصافير الخرساء	قصص إنسانية	ط. أولى٩٩١ط. الرابعة١٩٩٨
٧	صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	ط. أولى١٩٩١ط.الرابعة١٩٩٨
٨	العيون الحمراء	قصص إنسانية	ط.أولى١٩٩٢ط.الخامسة١٩٩٨
٩	افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	ط. أولى١٩٩٢ط. الثالثة١٩٩٨
١٠	اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	ط. أولى١٩٩٢ط. الخامسة١٩٩٩
١١	أزواج وزوجات	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٣ط. الرابعة١٩٩٩
١٢	أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٣ط. الثالثة١٩٩٨
١٣	رسائل محترقة	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٣ط. الثالثة١٩٩٨
١٤	وقت للسعادة .. ووقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	ط. أولى٩٩٣ط. الرابعة٢٠٠٠
١٥	شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	ط.أولى١٩٩٣ط. الرابعة١٩٩٩
١٦	أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	ط.الأولى١٩٩٤ط. الثانية٢٠٠٠
١٧	لا تنسنى	قصص رومانسية	ط. أولى١٩٩٥ط. الثالثة٢٠٠١
١٨	نهر الدموع	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٥ط. الثالثة٢٠٠١
١٩	أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٧ط. الرابعة ١٩٩٩
٢٠	خاتم فى اصبع القلب	صور أدبية	ط. أولى١٩٩٦ط. الثالثة١٩٩٩
٢١	وحدى مع الآخرين	مقالات	ط. أولى١٩٩٦ط. الثالثة٢٠٠٠
٢٢	سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	ط. أولى١٩٩٧ط. الثانية١٩٩٨
٢٣	هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	ط.الأولى١٩٩٧ط. الثانية٢٠٠٠

٢٤	مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	ط.الأولى١٩٩٧ط. الثانية٢٠٠٠
٢٥	أوراق الليل	قصص إنسانية	ط.الأولى١٩٩٧ط. الثانية٢٠٠٠
٢٦	طائر الأحزان	قصص إنسانية	ط. أولى١٩٩٦ط. الثالثة٢٠٠١
٢٧	اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	ط. الأولى١٩٩٦ط. الثانية٢٠٠١
٢٨	الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	ط. الأولى١٩٩٧ط. الثانية٢٠٠٠
٢٩	سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	ط. أولى١٩٩٧ط. الثانية١٩٩٨
٣٠	قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الأولى١٩٩٧
٣١	صور من حياتهم	قصص قصيرة	ط. أولى١٩٩٨ط. الثانية١٩٩٨
٣٢	ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	ط. الأولى ١٩٩٨ط . الثانية٢٠٠٠
٣٣	أهلا مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى١٩٩٨
٣٤	عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	ط. أولى١٩٩٨ط. الثالثة٢٠٠٠
٣٥	قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	ط. الأولى١٩٩٩ط. الثانية٢٠٠١
٣٦	ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى١٩٩٩
٣٧	الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى١٩٩٩
٣٨	دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الأولى١٩٩٩
٣٩	أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى١٩٩٩
٤٠	أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى٢٠٠٠
٤١	من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى٢٠٠٠
٤٢	حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى٢٠٠٠
٤٣	صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى٢٠٠١
٤٤	حكايات شارعنا	سـيرة ذاتيـة	الطبعة الأولى٢٠٠١

رقم الإيداع

٢٠٠٢/١٥١٨٦

الترقيم الدولى

977 - 08 - 1074 - 6